

فصل

في مضايقة العدو خذله الله لعكا يسر الله فتحها

واستيلائهم عليها

قال العماد: لما كان يوم الخميس رابع جمادى الأولى، زحف الفرنج الى عكا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق ، ووصلت كتب من عكا الى السلطان بالاستنفار العظيم والتماس شغل العدو عنهم ، فركب السلطان بعسكره وكان هذا دأبه معهم كلما نابوا البلد نابهم ، فاذا زحف اليهم رجعوا عن الحصر ، واذا رجع عنهم عاودوه ، وكان علامة بين السلطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقوا كؤوسهم فتدق كؤوس السلطان إجابة لهم، واستبعد السلطان منزلته فتحول الى تل العياضية تاسع جمادى الاولى ، ووصل ملك الانكليز ثالث عشر جمادى الاولى من قبرس ومعه خمس وعشرون قطعة ، وهو في جمع شاك وجمر ذاك فبلي الشجر منه بغير البلاء الاول، هذا ومجانيق الكفر على الوغى مقيمة، وللرمي مديمة، وتمكن الفرنج بها من الخندق، فدنوا منه دنو المحنق، وشرعوا في هجمه واسرعوا الى طمه، وداموا يرمون فيه جثث الاموات ، وجيف الخنازير والدواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ، ويحملون اليه موتاهم ، وأصحابنا في مقابلتهم ومقاتلتهم ، قد انقسموا فرقتين ، وانقسموا قسمين ، وفريق ينقي الخندق وما ألقى فيه ، وفريق يقارع العدو ويلاقيه.

قال القاضي: ولقد بلغ من مضايقتهم البلد ومبالغتهم في طم خندقه انهم كانوا يلقون فيه موتى دوابهم ، وكانوا اذا جرح منهم واحد جراحة مثخنة مؤسدة ألقوه فيه، وانقسم أهل البلد أقساما قسم ينزلون الى الخندق ويقطعون الموتى والدواب التي يلقونها فيه قطعاً ليسهل نقلها

وقسم ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر ، وقسم يذبون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم في المنجنيقات وحراسة الاسوار ، وأخذ منهم التعب والنصب ، وتواترت شكايتهم من ذلك .

قال: وهذا ابتلاء لم يتل به احد ولا يصبر عليه جلد ، والسلطان رحمه الله لا يقطع الزحف عنهم والمضايقة لهم على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً حتى يشغلهم عن البلد، وصوبوا منجنيقاتهم الى برج عين البقر ، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلاً ونهاراً حتى أثرت فيه الاثر البين، وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد السلطان في قتالهم، وكبس خنادقهم والهجوم عليه ، ودام ذلك حتى وصل ملك الانكليز .

قال: وفي سادس عشر جمادى وصلت بطسة من بيروت عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والمير والرجال والابطال المقاتلة ، وكان السلطان قد امر بتعبيتها في بيروت وتسييرها ، ووضع فيها من المقاتلة خلقا عظيما، حتى تدخل الى البلد مراغمة للعدو، وكان عدة رجالها المقاتلة ستماية وخمسين رجلاً ، فاعترضها ملك الانكليز الملعون في عدة شواني قيل إنها كانت اربعين قطعة، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدوا في قتالها ، وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالا شديدا وقتل من العدو عليها خلق عظيم ، وأحرقوا على العدو شانيا كبيرا فيه خلق كثير فهلكوا عن آخرهم وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدمهم رجلا جيدا شجاعا مجربا في الحرب اسمه يعقوب من أهل حلب، فلما رأى أمارات الغلبة عليهم، قال: والله لانقتل الا عن عز ولا نسلم اليهم من هذه البطسة شيئا ، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من جانب أبوابا فامتلات ماء، وغرق جميع من فيها وما فيها من الآلات والمير ولم يظفر العدو منها بشيء أصلا، وتلقف العدو بعض من كان فيها وأخذوه إلى الشواني من البحر، وخلصوه من الغرق ومثلوا به

وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة ، وحزن الناس لذلك حزناً شديداً
والسلطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله تعالى والصبر على
بلائه.

قال : وكان العدو المخدول قد صنع دبابة عظيمة هائلة اربع طبقات
الاولى من الخشب، والثانية من الرصاص، والثالثة من الحديد، والرابعة
من النحاس، وكانت تعلق على السور ويركب فيها المقاتلة، وخاف
أهل البلد منها خوفاً عظيماً، وحدثتهم نفوسهم بطلب الأمان من العدو
وكانوا قد قربوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور الا مقدار
خمسة اذرع على مانشاهد، وأخذ أهل البلد في تواتر ضربها بالنفط ليلاً
ونهاراً حتى قدر الله تعالى حريقها، واشتعال النار فيها وظهر لها ذؤابة
نار نحو السماء واشتدت، الأصوات بالتكبير والتهليل، ورأى الناس
ذلك جبراً لذلك الوهن، ومحوراً لذلك الاثر، ونعمة وایناسا بعد يأس،
وكان ذلك في يوم غرق البطسة

قال العماد: فكان ذلك تشميتاً لتلك العطسه، ثم جرى بعد ذلك
عدة وقعات في هذا الشهر، وهو جمادى الأولى، وهجم المسلمون خيم
العدو ونهبوها، ووصل رجل كبير من أهل مازندان يريد الغزاة،
فوصل والحرب قائمة فحمل حملة استشهد فيها في تلك الساعة، ولم
تزل الأخبار تتواصل من أهل البلد باستفحال أمر العدو والشكوى من
ملازمتهم قتالهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر
الأعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الانكليز الملعون، ثم مرض
مرضاً شديداً اشفى فيه على الهلاك، وجرح الافرنسيس، ولايزيدهم
ذلك إلا إصراراً وعتواً، وهرب الى السلطان خادمان ذكروا أنها لاخت
ملك الانكليز وأنها كانا يكتمان إيمانها، فقبلها السلطان وأكرمها،
وهرب أيضا المركيس منهم إلى صور، وكان قد استشعر منهم أن يخرجوا
ملكها عن يده.

قال العماد في البرق: ولما اعوزت الفرنج الحيل ، وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجمل ، وذلك أن أبرجتهم الخشبية أحرقت ، وستائرهم ودباباتهم وكباشهم وزعت ومزعت ومزقت ، اقاموا قدام خيامهم صوب عكا تلا من التراب مستطيلاً ، ورفعوه كشيئا مهيلاً ، ثم نقلوه وحولوه وكانوا يقفون وراءه ، ويجولون الى قدامه ترابه ، ويقربون الى قرب البلد رقباه ، فهم من خلفه من النكايات محجوبون ، يشبون ويذبون ، ويدبرون الحرب الزبون ، والتل المتحول الى البلد قد أعيا على أهل الجلد ، لاتعمل فيه النار ، ولا يصل الى دفعه الاقتدار ، حتى صار من المدينة على نصف غلوة سهم ، ورمي بكل جمرة ورجم ، فما يزيد في كل يوم إلا قربا ، وما يجز في كل وقت الا خطبا أو حربا ، وكان الاصحاب يخرجون من البلد اليه ويقاتلون عليه ، ويظفون بحول الله حواليه ، ومن كتاب فاضلي إلى الديوان: « ماقطع الخادم الخدم الا لانه قد اضجر واسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أمره واستشر شره ، فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوا حاصرا محصورا ، غامراً مغمورا قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ، ويعوق الغرض عن الانتهاز ، ولا تقصر عدتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة الف راجل ، وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ، ولقمهم النصر ، وقد أمدهم البحر بالبحار ، وأعان أهل النار ، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الاعجمية من لا يحصر معدوده ، ولا يصور في الدنيا وجوده ، فما احقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمة

فما يفهم الحداث إلا التراجم

حتى انه اذا اسر الاسير واستامن المستامن احتيج في فهم لغته الى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان ما يقوله اول ، وثالث ما يقوله ثان ، والاصحاب كلوا وملوا ، وصبروا الى ان ضجروا ، وتجلدوا الى ان تبلدوا ، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لاتصل الا وقد

كل ظهرها وقل وفرها وضاق بالبيكار صدرها، ولا تستفتح الا بطلب الدستور، ويصير ضجرها مضرا بالسمعة عند العدو المخذول ، ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد فإنهم قاتلوا مرة بالابرجة، وأخرى بالمنجنقات ،ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش وأونة باللوالب، ويوما بالنقب وليلا بالسرابات، وطورا بطم الخنادق وأنا بنصب السلام، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ، ورفعوها بالاخشاب وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قدامها وهم يتقدمون أول أول ، وترتفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم، وقد كان الحجر والنار تؤثران في أبرجة الخشب ، وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنقات من العطب ، لاتؤثر فيها الحجارة الرامية،ولاتعمل فيها النار الحامية».

قال ووصل في آخر جمادى الأولى من العساكر الاسلامية مجاهد الدين يرنفش ، ومعه عسكر سنجار ، وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب الموصل، وجماعة من أمراء مصر والقاهرة ،كعلم الدين كرجي وسيف الدين سنقر الدووي وغيرهما من الأسيدي والناصرية ، وأما عساكر ديار بكر فانهم تأخروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين ، وكان قد تعرض للسويدا وغيرها، وصعب ذلك على السلطان ، وقال : هذا من عمل الشيطان ، وفي مثل هذا الوقت نعرض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السنة ، حيث أساء عند إمكان الحسنه ، واشتد مرض الانكلتيز بحيث شغل الافرنج بمرضه عن الزحف ، وكان ذلك خيرة من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضعف من فيه ضعفا عظيما ، وهدمت المنجنقات من السور مقدار قامة الرجل ،فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق ، وزوال فرق ، وانتعاش عشرة، وانجبار كسرة.

قال القاضي: واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم، ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم، ويأخذون الرجال في عافية بأن يجيئوا إلى الواحد وهو نائم فيضعوا على حلقه السكين، ويوقظونه ويقولون له بالإشارة: إن تكلمت ذبحناك ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين، وجرى ذلك مراراً كثيرة، ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلا للوقت بما لاطائل تحته، منها أن ملك الانكليز طلب الاجتماع به، ثم فتر بعد أياما، ثم جاء رسول يطلب الاستئذان في اهداء جوارح جاءت من البحر ويذكر انها قد ضعفت وتغيرت، وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تأكله لتقوى ثم تهدى، ففهم انه يحتاج إلى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض، ثم نفذ أسيرا مغربيا عنده فأطلقه السلطان، ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل إليه ذلك، وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الاوقات على المسلمين، وهم مشتغلون بالحصار وموالاتة الرمي والجد في الزحف حتى تبدلت قوة البلد بالضعف، وتخلخل السور وأنهاك التعب والسهر أهل البلد لقلّة عددهم وكثرة الاعمال عليهم حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا ليلا ولا نهارا، والعدو عدد كثير يتناوبون على قتالهم، واشتد ذلك عليهم سبع جمادى الآخرة، فركب السلطان بالعسكر الاسلامي ورجبهم ونخاهم وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر، وجرى قتال عظيم، وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد وينادى بنفسه: يا لاسلام وعيناه قد فارت بالدمع، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على من بها من المصاب العظيم اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وإنما شرب شيئا أشار به الطبيب، ولما هجم الليل عاد إلى الخيم وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن، ثم ركب سحرا وصبحوا على ما أمسوا عليه، وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها: إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد إن لم

تعملوا معنا شيئاً نطلب الامان، ونسلم ونشتري مجرد رقابنا، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً، فرأى السلطان مهاجمة العدو فلم يساعده العسكر، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعض الناس من بعض الأطراف فثبتوا وذبوا غاية الذب، وحكى بعض من دخل عليهم اسوارهم انه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين، ووقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً وهو يتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه، ورؤيت امرأة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة، ثم قتلت وجملت الى السلطان فعجب من ذلك، ولم يزل الحرب الى آخر الليل، وضعفت نفوس أهل البلد، وتمكن العدو من الخنادق فملئوها ونقبوا سور البلد وحشوه وأحرقوه، فوقعت بدنه من الباشورة ودخل العدو اليها وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفساً وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحد منهم: لا تقتلوني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية، فبادر رجل من الأكراد وقتله وقتل الخمسة الباقية، وفي الغد ناداهم الفرنج احفظوا الستة فانا نطلقكم كلكم بهم، فقالوا: إنا قد قتلناهم فحزن الفرنج وبطلوا عن الزحف ثلاثة ايام، وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمان الى ملك الافرنسيس، وهو كان مقدم الجماعة في الرتبة، وقال له: إنا قد اخذنا منكم بلاداً عدة وكنا نهدم البلد وندخل فيه ومع هذا اذا سألونا الأمان أعطيناهم، وحمّلناهم الى مأمئهم وأكرمناهم، ونحن نسلم البلد وتعطينا الامان على أنفسنا، فقال: أرى فيكم رأيي، فأغلظ له المشطوب القول وانصرف عنه، ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعة ممن كان في البلد فأخذوا لهم بركوسا، وهو مركب صغير وركبوا فيه ليلاً خارجين الى العسكر الاسلامي

منهم عز الدين ارسك، وحسام الدين تمر تاش بن الجاولي، وسنقر الوشاقى ، وهو من الاسدية الاكابر، وذلك في ليلة الخميس تاسع جمادى الاخرة ، فأما ارسك وسنقر فتغيبا خوفا من السلطان، واما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانات، وكان شابا اول ماتوفي والده فأقطع السلطان اقطاعاتهم وقطعها وحبس عنهم الرضا بعد مدة مديدة بشاشة وجهها، ومنعها، وكان من جملة الهاريين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية الناصرية فشفع فيه على انه يضمن على نفسه العودة فعاد من ليلته ووقع بعد ذلك في الاسار واستفكه السلطان بعد سنة بثماني مائة دينار، ومن كتاب الى صاحب إربل مظفر الدين: «لما عاين أصحابنا بالبلد ماهم عليه من الخطر، وانهم قد اشفوا على الغرر فر جماعة من الامراء ممن قل بالله وثوقه، وأعمى قلبه فجوره وفسوقه، ولقد خانوا المسلمين في ثغرهم، وباؤوا بوبال غدرهم، وماقوى طمع العدو في البلد الا هربهم ، وماأرهب قلوب الباقين من مقاتلتهم الا رهبهم، والمقيم من اصحابنا الكرام ، قد استحلوا مر الحمام، وأجمعوا أنهم لايسلمون حتى يقتلوا من الاعداء اضعاف اعدادهم، وانهم يبذلون في صون ثغرهم غاية اجتهادهم ، وكانوا تحدثوا مع الفرنج في التسليم فاشتطوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا ومدوا أيديهم في القوم وبسطوا، فتارة يخرجونهم من الباشورة وتارة من النقوب، والله تعالى يسهل تنفيس ماهم فيه من الكروب».

قال القاضي: وفي سحرة تلك الليلة ركب السلطان مشعرًا أنه يريد كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا وقالوا: نخاطر بالاسلام كله، وفي ذلك اليوم خرج من عند ملك الانكلتيز رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجا وذكروا ان مقدم الاسبتارية يخرج في الغد، يعني يوم الجمعة، يتحدث ويتحدثون معه في معنى الصلح فأكرمهم السلطان ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه،

وعادوا تلك الليلة الى عسكرهم، وفي ذلك اليوم تقدم الى قايماز النجمي حتى دخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم، وترجل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخوالمشطوب ولفيفهم، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج، ونصب قايماز علمه بنفسه على أسوارهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار، وفي ذلك اليوم وصل عز الدين جرديك النوري وسوق الزحف قائمة فترجل هو وجماعته، وقاتل قتالا شديدا، واجتهد الناس في ذلك اليوم اجتهادا عظيما.

قال العماد: وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد، منتظرا لنجح الامل البعيد، ولما عرف السلطان أنه لاسلامه، وأن عكا عدمت الاستقامة، نفذ إلى جماعة عكا وقال لهم: خذوا من العدو حذرا، وانفقوا واخرجوا ليلا من البلد يدا واحدة، وسيروا الى جانب البحر، وصادموا العدو بالقهر، وخلوا البلد بما فيه وتركوه بما يحويه، فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه، ولم يعلم ان التهاء به يهلكه، فما تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح، ولم يصح ذلك في الليلة الثانية لمصير السر إلى العلانية. قال: ولو صح ذلك لنجح المقصد ولكن الفرنج اطلعوا على هذا السر، فحرسوا الجوانب والأبواب وكان سبب علمهم اثنين من غلمان الهاريين خرجا إلى الملاعين وأخبراهم بجلية الحال، وعزيمة الرجال.

قال: وخرج يوم الجمعة من الشهر جماعة من رسل الفرنج ونحن على الحرب ومحاولة الطعن والضرب، وفيهم صاحب صيدا فطلب نجيب الدين العدل، وكان السلطان يعذق به في رسالات الفرنج العقد والحل، وعول السلطان في سماع الرسائل على ولده الأفضل وأخيه العادل، وتردد العدل مرارا في الخطاب والجواب، فلم ينفصل الأمر على الصواب، وبذلنا لهم عكا على ما فيها دون من فيها، وأنا نطلق لهم أسرى بعدد

العدة التي تمويهها، فأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليب الصلبوت فلم يحصل لهم به كمال الاغتباط ، هكذا قال في البرق.

وقال في الفتح : ان ذلك كان يوم السبت، وقال اشترطوا إعادة جميع البلاد ، وإطلاق اساراهم من الاقياد .

وضعف البلد وعجز من فيه ضعفا لايمكن تلافيه ووقف كرام أصحابنا وسدوا الثغر بصدورهم وشرعوا في بناء سور يقتطع جانبا حتى ينتقلوا إليه إذا شاهدوا العدو غالبا، وكذا قال ابن شداد أن ذلك اليوم كان يوم السبت الحادي عشر، وقال: لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب وتحركوا حركة عظيمة بحيث اعتقد ان ربها كان مصاف ، واصطفوا وخرج من الباب الذي تحت القبة زهاء أربعين نفسا واستدعوا جماعة من المماليك وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكر وا أنه — يعني الخارج صاحب صيدا — طليق السلطان ، فذكر نحو ماتقدم، وقال: وتصرم نهار السبت ولم ينفصل أمر .

قال : ولما كان يوم الاحد ثاني عشر الشهر وصل من البلد كتب يقولون فيها : إنا قد تبايعنا على الموت فيياكم ان تخضعوا لهذا العدو وتلينوا له، أمانحن فقد فات أمرنا، وذكر العوام الواصل بهذه الكتب أنه وقع في الليل صوت انزعج منه الطائفتان ، وظن الفرنج أن عسكرا عظيما قد عبر الى عكا وسلم وصار فيها واندفع كيد العدو في تلك الأيام بعد أن كان قد أشفى البلد على الأخذ ، ووصل من عساكر الاسلام صاحب شيزر سابق الدين، وبدر الدين دلدرم ومعه تركمان كثير كان السلطان أنفذ اليهم ذهبا أنفقه فيهم وصاحب حمص، و اشتد ضعف البلد وكثرت ثغوره فبنوا عوض الثلثة سورا من داخلها حتى إذا تم انهدامها قاتلوا عليه، وثبت الفرنج على أنهم لا يصالحون ولا يعطون الذين في البلد أمانا حتى تطلق جميع الاسرى الذين في أيدي

المسلمين، وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وفي يوم السابع عشر خرج العوام وفي كتبه أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت رقابهم عن آخرهم، وأخذ جميع مافيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع مافيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار، وألفاً وخمسة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصليبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين وماعمهم من الأموال والاقمشة المختصة بهم وذرايهم ونساؤهم، وضمنوا للمركيس الملعون. —فانه كان قد استرضي وعاد— عشرة آلاف دينار، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار، واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج، ولما وقف السلطان على ذلك أنكره وأعظمه، وعزم على أن يكتب إليهم في ذلك انكارا عليهم، فهو في مثل هذه الحال وقد اجتمع أمراءه وأصحاب مشورته، فما احس المسلمون الا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره على أسوار البلد وذلك ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنالله وإنا إليه راجعون، وغشي الناس بهتة عظيمة، وحيرة شديدة، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب، وكان لكل قلب حظ في ذلك على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب من هذا الحظ على مقدار ديانتته ونخوته، واقشعت الحال على أن المركيس لعنة الله دخل البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك عوضاً عن علم الاسلام، وحينئذ المسلمون إلى بعض اطراف البلد، وجرى على أهل الاسلام المشاهدين لتلك الحال ماكثر التعجب من الحياة معه.

قال: ومثلت بخدمة السلطان رحمه الله عشية ذلك اليوم، وهو أشد حالة من الوالدة الثكلى والوالهة الحيرى، فسليته بما تيسر من التسلية واذكرته الفكر فيما قد استقبله من الأمر في معنى البلاد الساحلية

والقدس الشريف ، وكيفية الحال في ذلك وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد ، وانفصل الحال على أن رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحة فإنه لم يبق غرض في المضايقة، فتقدم بنقل الاثقال ليلا الى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفر عم، وأقام هو جريدة مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد ، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، واشتغل العدو بالاستيلاء على البلد ، وأقام السلطان إلى التاسع عشر ، ثم انتقل إلى الثقل ، ووصل ثلاثة نفر ومعهم أقوش حاجب بهاء الدين قراقوش، وكان لسانه فإنه كان رجلا عاقلا مستنجزين ما وقع عليه عقد الصلح من المال والأسرى، فأقاموا ليلة مكرمين وساروا إلى دمشق يبصرون الأسارى.

قال العماد : وخرج سيف الدين المشطوب ، وحسام الدين حسين باريك، وأخذوا امان الفرنج يعنى على القطيعة المقدم ذكرها.

قال: ولم نشعر إلا بالرايات الفرنجية على عكا مركزه، وأعطاف أعلامها مهزوزة ، وعمّ البلاء ، وتم العناء ، وعز العزاء وقنط الرجاء ، وحضرنا عند السلطان وهو مغتم ، وبالتدبير للمستقبل مهتم، فعزيناه وسليناه، وقلنا هذه بلدة مما فتحه الله قد استعادها أعداءه، وقلت له: إن ذهبت مدينة فماذهب الدين، ولا ضعف في نصر الله اليقين .

قال: ودخلوا عكا وتسلموها ، ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها ، فإنهم منعوا أصحابنا من الخروج واحتاطوا عليهم وعلى الأموال بحبسهم واعتقلهم ، ثم طلبوا المال فجمعه السلطان وكمله، وأودعه خزانته بعد ما حصله ، وأحضر صليبيهم المطلبوب المسلوب ، وأتم شرطهم المخطوب، فظهرت أمارات غدرهم ، وبدت دلائل مكرهم .

وفي كتاب كتبه الفاضل عن السلطان الى شمس الدولة بن منقذ

وهو بالمغرب في الرسالة: «لقد تجاوزت عدة من قتل على عكا، يعنى من الفرنج، الخمسين الفاء، قولا لا يطرقه التسمح ، بل يجرزه التصفح فانبروا في هذه السنة ملكا افرنسيس وانكلتيز وملوك آخرون في مراكب بحرية وحالة حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة والآلة ، ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة، واحدقت بالثغر فمنعت الناقل بالسلاح اليه، والداخل بالميرة عليه» ثم قال: «وأخذ البلد على سلم كالحرب ، ودخله العدو ولو لم يدخل من الباب دخل من النقب، وماوهنا لما أصابه في سبيل الله وماضعفنا، ولا رجعنا وراءنا ولا انصرفنا، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ، ونخرجوا فنناجزهم، وينشروا فنطويهم ، وينبثوا فنزويهم، واقمنا على طرقهم ، وخيمنا على مخنقهم، وأخذنا بأطراف خندقهم ، وأحوج ماكانا الى النجدة البحرية، والأساطيل المغربية، فإن عاريتنا به ترد، وعاديتنا بها تشتد، والامير يبلغ مابلغه من خطب الاسلام وخطوبه، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه ، ويعجل العودة وقبلها الاجابه، ويستصحب السهم ويسبق ببشرى الاصابه، ويشعر أن الراية قد رفعت لنصر تقدم به عرابه، فإن لاسلام نظرات الى الافق الغربي يقبلها ، وخطرات من اللطف الخفي يقربها، ويكفي من حسن الظن أنها نظرة ردت الهواء الشرقي غربا، وخطرة أوهمت ان تلك الهمة لو لم تلم بالسفائن لأخذت «كل سفينة غصبا».

قال العماد: وعزم ملك الافرنسيس على المسير الى بلاده لأمر إختل عليه، فأخذ قسما من الأسارى وسلمهم إلى المركيس ووكله في قبض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه، وخرج الفرنج يوم الخميس انسلاخ الشهر من جانب البحر ، وانتشروا بالمرج ووصلوا الى الآبار التي حفرها اليزك، وتواقعوا مع اليزك وأمدهم السلطان ففلوا العدو وصرع منهم خمسون فارسا.

قال القاضي: وخرج خلق عظيم ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا

خنادقهم ، قال : ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب ، فخرج حسام الدين حسين بن باريك المهراي ، ومعه اثنان من أصحاب الانكلتيز فأخبر أن ملك الافرنسيس صار إلى صوره ، وذكروا أشياء من تحرير أمر الأسارى ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصليبوت وشاهدوه وعظموه ورموا أنفسهم إلى الارض ، ومرغوا وجوههم على التراب ، وخضعوا خضوعا عظيما لم ير مثله ، وذكروا أن الملك قد أجابوا إلى أن يكون ما وقع عليه القرار يدفع في تروم ثلاثة ، أي نجوم ، كل ترم شهر ، ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجزها حتى حصل لهم ما التمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم وهو الصليب ، ومائة ألف دينار وستمائة أسير ، وأنفذوا نقباءهم وشاهدوا الجميع ما عدا الأسارى المعينين من جانبهم فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم ، ولم يكملوهم حتى يحصلوا ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول في ثامن عشر رجب ، ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك ، فقال لهم السلطان : إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا وتتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم ، ونعطيكم رهائن على الباقي يصل اليكم في ترومكم الباقية ، واما ان تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا ، فقالوا : لانفعل شيئا من ذلك بل تسلمون مانقبضه بهذا الترم وتقنعون بأمانتنا حتى نسلم إليكم أصحابكم ، فأبى السلطان ذلك لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى وأصحابنا عندهم لايؤمن غدرهم ، فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرزين في الحادي والعشرين الانكلتيز وجماعة من الخيالة والرجالة والتركبلي وركبوا في وقت العصر السابع والعشرين من رجب ، وساروا حتى أتوا الى الآبار التي تحت تل العياضة ، ثم احضروا من الاسارى المسلمين من كتب الله شهادته ، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال ووقفوهم وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم صبرا طعنا وضربا بالسيف رحمة الله عليهم ، واليزك الاسلامي

يشاهددهم، ولا يعلم ماذا يصنعون لبعده عنهم، وكان اليزك قد انفذ إلى السلطان وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم ، فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب عظيمة جرى فيها قتل وجرح من الجانبين ، ودام القتال الى ان فصل الليل بين الطائفتين وأصبح المسلمون يكشفون الحال فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم ، وعرفوا من عرفوا منهم، وغشي المسلمين بذلك حزن عظيم، ولم يبقوا من المسلمين إلا رجلا معروفا مقدما أو قويا أعدّ للعمل في عمائرهم.

قال العماد: وطلب السلطان منهم أن يضمّنهم الداوية في قبض المال، فقال الداوية : ما ندخل في الضمان ، فاقنعوا منهم بالقول والأمان، فظهر من فحوى كلامهم الخلف، ثم ذكر قتل الاسارى ، قال: فشاهدناهم مستشهدين بالعرا عرايا مجردين، ولاشك أن الله كساهم من سندس النعيم ، ونقلهم إلى دار المقامة في العز المقيم، وتصرف السلطان حينئذ في المال، وفرّق مجموعته في رجاء الرجال، وأعاد الاسارى إلى أربابها، واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها، وحفظ الصليب السليب وردّه الى مكانه وأعادته الى صوانه لا لعزه بل لهوانه، فإنه لامصاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه، وامتداد ايدينا اليه، وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بدولا، وانفذوا بعد رسول رسولا، فما وجدوا قبولا، ولا صادفوا سولا.

ومن كتاب عمادي عن السلطان في ذلك: « وللكرام آجال، والحرب سجال، والله من المؤمنين رجال، والآن فقد ثارت الحميات، وهبت النخوات، ووجب على كل مسلم ان ينهض لنصرة الاسلام، ويتدارك ما حدث من الكسر والوهن، بالجبر والاحكام ويعيد ما وهى من عقد الفتوح الى النظام، فأين ذوو الأنفة والحمية، والهمم العلية، والنفوس الأبية، أما يغتمون لمصرع من استشهد من أخوانهم، أما يثورون لشار

ايانهم، أما تبكي العيون لمن قتل من أمثالهم وأعيانهم، فإن مصابهم
عظيم، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم
الراقدة واثارة العزائم الراكدة».

فصل

فيما جرى بعد انفصال أمر عكا

قال العماد: ثم ان الفرنج رحلت صوب 'عسقلان مستهل شعبان، وسار السلطان في عراضهم، والمسلمون يخطفونهم ويقتلون منهم ويأسرون ويجرحون ويسلبون ويسرقون، وكل أسير أتى به السلطان أمر بقتله، ووصلوا الى حيفا فأقاموا بها ونزل المسلمون بالقيمون وقدم السلطان ثقله الى مجدل يابا وأضحى نازلا على النهر الجاري الى قيسارية، وودع الفاضل السلطان وسار الى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر، والنواب بها ربما جنبوا عن إقامة الوظائف، وكان الامر الفاضلي عندهم كالأمر السلطاني، فاذا استشاروه خلصوا من كل تبعة ودرك، وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأن الفرنج ركبوا وتألبوا وهم يسرون في الساحل بالفارس والرجال، وعن يمينهم البحر، وعن يسارهم الرمل، وكانت الرجالة حولهم كالسور وعليهم الكبورة الثخينة والزرديات السابغة المحكمة، بحيث يقع فيهم النشاب ولا يتأثرون، وهم يرمون بالزنبورك فتجرح خيول المسلمين وغيرهم.

قال القاضي: ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة مغروزة وهويسير على هيئته من غير انزعاج، وثم قسم آخر من الرجالة مستريح يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم، فإذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أنختهم الجراح قام مقامهم القسم المستريح، واستراح القسم العمال، هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة إلا في وقت الحملة لاغير، وقد انقسموا أيضا ثلاثة أقسام الاوّل الملك العتيق كي وجماعة الساحلية معه في المقدمة والانكليز والفرنسيسية معه في الوسط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة اخرى في الساقية، وفي وسط القوم برج على عجلة، وعلمهم على ماوصفته من قبل يسير أيضا في وسطهم

على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال ، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنشاب ، ويجزكون عزائمهم حتى يخرجوا وهم يحفظون نفوسهم حفظا عظيما ويقطعون الطريق على هذا الوضع، ويسرون سيرا رفيقا ومراكبهم تسير في مقابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل فنزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل الرجالة، فإن المستريحين كانوا يحملون أثقلمهم وخيمهم لقللة الظهر عليهم.

قال: فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشاقة من غير ديوان ولا نفع، وطاف الجيش حولهم من كل جانب ولزومهم بالنشاب، وكلما ضعف قسم عاونه الذي يليه، وهم يحفظ بعضهم بعضا، والمسلمون محذون بهم من ثلاثة جوانب، ورأيت السلطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية ونشاب القوم يتجاوزه ، وليس معه الا صبيان بجنيبتين لاغير، وهو يسير من طلب الى طلب يحثهم على التقدم ويأمرهم بمضايقة القوم، والصياح بالتهليل والتكبير يرتفع ، والعدو على أتم ثبات ترتيبهم لا يتغيرون ولا ينزعجون ، وجرت حملات كثيرة ، ورجالتهم تجرح المسلمون وخيولهم بالزنبورك والنشاب إلى أن أتوا إلى نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائم الظهيرة ، وضربوا خيامهم ، وتراجع الناس عنهم فانهم كانوا إذا نزلوا أيس الناس من أمر يتم معهم ، وفي ذلك اليوم قتل من فرسان المسلمين وشجعانهم إياز الطويل وهو من ممالك السلطان وكان قد فتك بهم ، وقتل خلقا من خيالتهم وشجعانهم ، وكان قد استفاضت شجاعته بين العسكرين بحيث أنه جرت له وقعات كثيرة صدقت أخبار الاوائل ، وصار بحيث أنه إذا عرفه الفرنج في موضع يخافون منه، فاتفق أن تقنطر به فرسه فاستشهد في ذلك اليوم ، ودفن على تل مشرف على البركة وحزن المسلمون عليه حزنا عظيما، وقتل عليه مملوك له، ونزل السلطان بالثقل على البركة وهو موضع يجتمع فيه مياه كثيرة، ثم رحل بعد العصر وأتى نهر القصب، فنزل عليه أيضا، فكنا

نشرب من أعلاه والعدو يشرب من أسفله، ليس بيننا إلامسافة يسيرة ،
وبات الفريقان هناك.

قال العماد :وكانت نوبة اليزك لعز الدين ابراهيم بن المقدم في الساقه،
وكانت الفرنج قد انست بانقضاء الحرب فخرج منها جماعة مسترسلين ،
وتقدموا على البركة مشرفين، فبصرهم ابن المقدم، فعبر اليهم من ورائهم
هو ومن معه النهر ولم يأخذوا من خلفهم الحذر، ففجأهم وفجعهم ،
وفرغ من شغلهم قبل ان يدركهم الصريخ وسلبهم وغنمهم ، ثم نهض
الفرنج اليه، وحملوا عليه وجرت وقعة شديدة لحزب الضلال مييدة ،
جلبت لنا غنيمة ، وعليهم هزيمة، وأحضر الأسارى عند السلطان
بحزام الذل والهوان، فأخبروا أنهم جرح منهم بالأمس ألف، وسرى فيهم
وهن وضعف.

ثم رحل السلطان وعبر شعراء أرسوف، ونزل على قرية تعرف بدير
الراهب، وطلب ملك الانكليز الاجتماع بالملك العادل خلوة فاجتمعوا،
فاشار بالصلح وكان حاصل كلامه أنه طال بيننا القتال ونحن جئنا في
نصرة افرنج الساحل، فاصطلحوا انتم وهم وكل منا يرجع إلى مكانه،
فقال: على ماذا يكون الصلح؟ قال: على أن يسلم إلى أهل الساحل
ماأخذ منهم من البلاد، فأبى الملك العادل، وأخبره أن دون ذلك قتل
كل فارس وراجل، فرجع مغضبا.

وفي يوم السبت رابع عشر رمضان كانت وقعة أرسوف تأهب
المسلمون للقائهم ، فأزعجهم وأبلوهم ببلائهم ، فلما رأى العدو ما هو
فيه من الضيقة احتموا وحملوا حملة واحدة فانكشف من كان قدامهم،
واندفعوا وثبت ذلك اليوم العادل وأصحابه وقاياهاز السجمي، وعسكر
الموصل ، ثم كرت العساكر كرا إليهم، وجرت النوائب عليهم ، فجرت
بين الفئتين مقتلة عظيمة ، فلجأوا إلى جدران أرسوف ،ولولا ذلك

لاستوعبت فيهم الحتوف، فنزل السلطان على نهر العوجا ورحل العدو الى يافا فنزلوها ، والمسلمون على العادة في عراضهم، مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم ، وقتل يوم أرسوف لهم كند كبير تحت حكمه من الفرنج عدد كثير، وكان من عظم شأنه وفخامة مكانه انه يوم صرع قاتل دونه جماعة من المقدمين، فما قتل حتى قتلوا، ولا بذل حتى بذلوا روحهم .

قال القاضي ابن شدّاد: رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفرج لهم رجالتهم، وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فاندفع الناس بين أيديهم ولم يبق في طلب السلطان إلا سبعة عشر مقاتلا ، والأعلام باقية والكؤوس تدق لاتفتري، فلما رأى السلطان مانزل بالمسلمين سار حتى أتى طلبه فوقف فيه، والناس يفرون من الجوانب وكلما رأى فارا يأمر من يحضره عنده فاجتمع في الطلب خلق عظيم، ووقف العدو قبالتهم على رؤوس التلول والروابي، وخاف العدو أن يكون في الشعراء كمين، وثابت العساكر كلها، فتراجع العدو إلى منزلته ، وجلس السلطان ينتظر الناس من العود من السقي والجرحى يحضرون بين يديه، وهو يتقدم بمداواتهم وحملهم وقتل رجالة كثيرة وجرح جماعة من الطائفين ، وصدّم الملك الأفضل وانفتح دمل كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب في ذلك كله، وقتل من العدو جماعة وأسر واحد وأحضر فأمر بضرب عنقه.

وفي بعض الكتب السلطانية: «سار العدو من عكا على قصد عسقلان، وسقنا لمعارضتهم في كل طريق ، ومضايقتهم في كل مضيق، ومنازلتهم في كل منزل ، ومدافعتهم في كل منهل، وهم يسيرون البحر البحر لايفارقون ساحله، ولا يتجاوزون مراحلها، والمواضع مضائق ، وشعراء ورمال، وما للقتال فيها مجال، وما وجدنا فسحة إلا وضايقناهم

فيها، وأخذنا عليهم في نواحيها، ومن جملة أيامنا المشهودة، ومواسمنا المعروفة المحمودة يوم الاثنين تاسع شعبان عند رحيلهم من قيسارية» فذكر الواقعة السابقة وفيها « أنه نفق ألف رأس»، ثم ذكر يوم أرسوف وحسن عاقبته للمؤمنين بعد اليأس، ثم رحل السلطان تاسع عشر شعبان ونزل بالرملة، واجتمعت الاثقال بها في تلك الرحلة، ورحل ليلا واصبح على بينا وجاوزها إلى نهر أمر أن الخيام عليه تبنى، قال: وزرنا بينا قبر أبي هريرة رضوان الله عليه، وتبادر الناس بالتيمن به إليه.

قلت: اعتمد العماد في هذا على ما اشتهر بين العامة من ذلك، وأما اهل العلم المصنفون في أخبار الصحابة رضي الله عنهم، كابن سعد وغيره، فذكروا أن أبا هريرة توفي بالمدينة، ولم يذكروا غيره على ما ذكرناه في ترجمته في التاريخ والله اعلم.

قال العماد: ورحل السلطان، ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر، وشرع فيما عزم عليه من الأمر، وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء، فأشار علم الدين سليمان بن جندر بخرابها، للعجز عن حفظها على ما بها، ووافق الجماعة وقالوا: قد ضاق عن صونها الاستطاعة، فإن هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها، وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين، فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وحكمه، فاقتضت الآراء اقامة العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء، حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم.

قال القاضي: أشار عليه بتخريب عسقلان خشية أن يستولى عليها الفرنج، وهي عامرة فيتلقفوا من بها من المسلمين، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا طريق مصر، وخشي السلطان من ذلك، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان

مقيما بها، فسار حتى أتى عسقلان ، وقد ضربت خيمته شمالها ، فبات هناك مهموما بسبب خراب عسقلان ومانام تلك الليلة إلا قليلا ، ولقد دعاني إلى خدمته سحرا وكنت فارقتة بعد مضي نصف الليل ، فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها، وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث ، ولقد قال رحمه الله: والله لأن افقد أولادي بأسرهم أحب الي من أن أهدم منها حجرا واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك ، وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقا، فكيف أصنع؟ قال : ثم استخار الله تعالى فأوقع في نفسه ان المصلحة في خرابها فاستحضر الوالي، وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان، ولقد رأيتة وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب ، وقسم السور على الناس، وجعل لكل أمير طائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوما يخربونه ، ودخل الناس الى البلد، ووقع فيه الضجيج والبكاء ، وكان بلد نضرا خفيفا على القلب، محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا في سكناه ، فلحق الناس عليه حزن عظيم ، وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعملان الناس في الخراب خشية أن يسمع العدو فيحضر، ولا يمكن من خرابها وأباح الناس الهري الذي كان ذخيرة في البلد للعجز عن نقله، وضيق الوقت والخوف من هجوم الفرنج ، وأمر بحريق البلد ، فأضرمت النار فيه والاحبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا، وخرب من سور عسقلان معظمه، وكان عظيم البناء بحيث أنه كان في موضع تسعة أذرع وفي موضع عشا ، وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر أن عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح، فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان ، وعند ذلك وصل من جرديك كتاب يذكر فيه أن القوم قد نفسحوا، وصاروا يخرجون من يافا يغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ منهم غرضاً في غرتهم، فعزم على الرحيل وعلى أن يخلف في عسقلان حجارين، ومعهم خيل تحميهم يستقصون في الخراب، ثم رأى ان يتأخر بحيث يحرق

البرج المعروف بالاسبتار ، وكان برجاعظيما مشرفا على البحر كالقلعة المنيعة، ولقد دخلته وطفته ، فرأيت بناءه أحكم بناء لاتعمل فيه المعاول وإنما أحرق ليبقى بالحريق قابلا للخراب، وبقيت النار تشعل فيه يومين بليلتيهما .

قال العماد: ونقض منها الابراج التي على ساحل البحر ، ودخلتها فرأيتها أحسن مدينة ، منيعة حصينة ، فطال بكائي على رسومها، وفض ختومها، وقبض ارواحها من جسومها، وحلول الدوائر بدورها، ونزول السوء بسورها، فما برح السلطان منها حتى رأينا طلوعها دوارس، ورسومها طوامس، والرؤوس حياء من معاهدها نواكس، قال: ولو حفظت لكان حفظها متعينا وصونها ممكنا، لكن وجد كلا له متجنباً، متجنباً، وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين ، وعادت بعد ذلك بمضرة المسلمين ، وقال من تعلق واعتذر عن دخولها: تدخلها أنت أو أحد أولادك فندخلها إتباعا لمرادك ، فحينئذ لم يجد بدا من نقض أسوارها، وفض سوارها، وسكانها كانوا في رفاهية ، فانتقلوا عنها على كراهية، وباعوا أنفس الأعلاق بأبخس الاثمان ، وفجعوا بالأوطار والأوطان.

فصل

فيما جرى بعد خراب عسقلان

قال العماد: فارقتها السلطان يوم الثلاثاء ثاني رمضان ، ونزل على بينا ، ونزل بالرملة يوم الاربعاء وأمر بتخريب حصنها ، وتخریب كنيسة لده ، وركب جريدة إلى القدس فأثاه يوم الخميس ، وأعاد إليه رسوم التأسيس ، وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان ، وبات في بيت نوبة وعاد إلى المخيم يوم الثلاثاء ، ووصل معز الدين قيصر شاه صاحب ملطية ابن قليج أرسلان وافدا عليه منتصرا به على أبيه وأخوته ، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده ، فأقام في الخدمة السلطانية مدة ، وتزوج بابنة العادل على صدق مائة ألف دينار ، وسار مستهل ذي القعدة ، وفي ثامن الشهر أيضا خرج الكمين على ملك الانكليز وكان خرج في فوارسه مخفراً للحطابة والحشاشه ، وكاد يؤخذ الملك ، لكن أحد خواصه فداه بنفسه ، بأن أظهر حسن لباسه ، فظن انه الملك فأسر .

وقال ابن شدّاد: حال بينه وبينهم فرنجي فقتل الفرنجي وجرح هو ، وفي ثاني عشره جرت أيضا وقعة كان النصر فيها للمسلمين ، وقتل مقدّم كبير من المشركين ، وما زال يقع بينهم وبين اليزك وقعات ، وتسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم .

ومن كتاب الى صاحب سنجار: «قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان ، وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان ، وانه قطع في سبعة عشر يوما مسافة يومين لما لابسه وغامر من الحين ، وما صدق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان ، وأقام بها يعمر المكان ، وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان ، ومنها إلى كل واحدة منهما مسافة نصف نهار ، وكلتاها من العدو على خوف

وحذار ، وكل واحد من الموضوعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل، وتعذر الجمع بين حفظ الثغرين ، وتحصين البلدين، وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه، وعصمته من العدو وتأمينه».

ثم رحل السلطان إلى النطرون، وخيم على تل عال، والنطرون حصن حصين كان للداوية، لكن لما فتح تشعثت أسواره، وانقض جداره، فأمر بهدمه فهدم، ثم بعث ملك الانكلتيز راغبا في المصالحة والمسالة إلى العادل ، وزعم أن له أختا عزيزة عليه، كبيرة القدر، وأنها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم، وهو صاحب صقلية ، توفي عنها ورغب أن يتزوجها العادل، ويجعل له الحكم على بلاد الساحل ينفذ أمره فيها، وهو يقطع الداوية والاسبتار من البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون اخته مقيمة بالقدس ومعها فيه قسيسون ورهبان، حافظة لها من آفة الزمان، فرأى العادل في ذلك عين الصواب ، وشاور السلطان فوافقه فيما أجاب، فنفذ الرسول إلى الانكلتيز بالاجابة ، فدخل الفرنج على المرأة وخوفوها، واتهموها في دينها وعنفوها، وقالوا لها مامعناه: هذه فضيحة فظيعة، وسبة شنيعة، وقطع على النصرانية وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لامطيعة، فرجعت عن ذلك وما أجابت، فاعتذر الانكلتيز بعدم موافقتها إلا ان يدخل العادل في دينها، فعرف أنها خديعة كانت من الانكلتيز .

قال القاضي: ووصل رسول من المركيس يذكر أنه يصلح الاسلام بشرط أن يعطى صيداويبيروت على أن يجاهر الفرنج بالعداوة ، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم، فأجيب إلى ذلك على أن يطلق من بها وبصور من الاسارى ، ولما سمع الانكلتيز بذلك رجع إلى عكا لفسخ هذه المصالحة، واسترجاع المركيس إليه، وجاء الخبر أن ملك الافرنسيس مات بأنطاكية.

ووصل كتاب من تقي الدين يخبر فيه أن قزل صاحب ديار العجم ابن ألدكز قتل ، وجرى بسبب قتله في بلاد العجم خطب عظيم .

قال العماد : وكان محتقراً للعظائم ، مقترباً للمآثم واضعاً للشرب والقصف والمواسم ، وقتل باصفهان عشرة من رؤساء الشافعية المعروفين ، وكبرائهم الموصوفين .

ووصل من الديوان كتاب يذكر فيه قصد تقي الدين خلاط ، ويظهر فيه العناية التامة ببكتمر ، ويشفع في حسن بن قفجاق ، ويتقدم باطلاقه ، وكان قد قبض عليه مظفر الدين بإربل ، ويتقدم بمسير القاضي الفاضل الى الديوان لبت حال ، وفصل أمر ، فأجاب السلطان بأنا لم نأمر تقي الدين بشيء من ذلك ، وإنما عبر ليجمع العساكر ، ويعود الى الجهاد ، وأما ابن قفجاق فقد تقدم إلى مظفر الدين حتى نحضره إلى الشام ، فيقطعه فيه ، ويكون ملازماً للجهاد ، وأما الفاضل فاعتذر عنه بأنه كثير الامراض ، قوته تضعف عن الحركة إلى العراق .

قلت : وبلغني أن الفاضل رحمة الله كتب في الاعتذار بالحضور الى الديوان ، وتمثل في كتابه بهذين البيتين :

ماكنت أول سار غره قمر

ورائد خدعتة خضرة الدم من

مثل لنفسك شخصي انني رجل

مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

قال القاضي : وأرسل الانكليز إلى السلطان إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وتلفت الأموال والأرواح ، وقد أخذ هذا الأمر حقه ، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد ، والقدس متعبدنا مانزل عنه ولو لم يبق منا واحد ، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن ، وأما الصليب فهو خشبة عندكم لامقدار له ، وهو عندنا

عظيم ، فيمن به السلطان علينا ، ونستريح من هذا العناء الدائم، فارس السلطان في جوابه: القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فانه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة لا يجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة راجعة إلى الاسلام هي أوفى منها.

وهرب شيركوه بن باخل الكردي من عكا ، وكان أسيرا بها ، وكان ادّخر جبلا في مخدته فتدلى من طاقة في بيت الطهارة ، واشتد هربا في قيوده إلى تل العياضية ، فكمن في الجبل وقد طلع عليه النهار، ثم كسر قيوده وسار إلى المسلمين ، ثم تواتر الخبر أن الفرنج على عزم النهوض، فسار السلطان من المخيم بالنظرون إلى الرملة سبع شؤال، وأقام بها عشرين يوما، فجرت وقعات، تمت دفعات، منها وقعة في ناحية يازور، وكان النصر فيها للمسلمين ، وفقد من المسلمين ثلاثة ، وذلك ثامن شؤال ، وفي سادس عشر شؤال وقعت وقعة أخرى عظيمة قتل فيها جماعة من الامراء، وأسر فارسان من الكفرة معروفان بالبأس سوى غيرهما، وقتل منهم زهاء ستين نفر.

وفي خامس شؤال وصل الخبر أن الاسطول المصري استولى على مراكب الفرنج ، ومنها مركب يعرف باسم المسطح قيل انه كان فيه خمسمائة نفر وزائد على ذلك، وانه قتل منهم خلق عظيم واستبقى منهم أربعة نفر المذكورون .

وفي ثامن عشر شؤال اجتمع الملك العادل والانكليز على طعام ومحادثة وانفصلا عن توادد ومطايبة ، وطلب منه الاجتماع بخدمة السلطان فامتنع رحمه الله وقال: الملوك إذا اجتمعوا يقبح بينهم المخاصمة بعد

ذلك ، وإذا انتظم امر حسن الاجتماع ، ورحل الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرملة، وأظهروا قصد القدس بتلك الرحلة ، ودامت الوقعات بين المسلمين وبينهم ، ورحل السلطان إلى القدس بنية المقام في الثالث والعشرين من ذي القعدة ، وكان الشتاء قد دخل ، والغيث قد اتصل ، فوصل إلى القدس وقت العصر ونزل بدار الاقساء مجاورة كنيسة قمامة ، وفي ثالث ذي الحجة وصل عسكر من مصر بأموال ورجال مع أبي الهيجاء السمين ، وتحول الفرنج إلى النظرون فقوى السلطان اليك فوقعوا على سرية فغنموها ، وسبق منهم إلى القدس نيف وخمسون أسير سوى من قتل منهم ، وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شيرز يوم عيد الأضحى، فنحر منهم وضحى، واحتوى على عشرة من مقدميهم أسرا وقتلا ، وتسلق باقي الفرنج في الجبال وتركوا خيلهم ، فغنمها المسلمون، ولم يزل المسلمون عليهم مستظهرين مدة مقامهم بالنظرون وجعل المسلمون يقطعون الطريق على تجارهم حتى أنهم أخذوا قافلة ثقيلة بمن فيها ولم يقدرها على تخليصها فرحلوا عائدتين إلى الرملة في الثاني والعشرين من ذي الحجة ، وفي ذلك اليوم وصل من الموصل خمسون رجلا برسم قطع الصخور من الخندق ، فان السلطان شرع في تحصين القدس وعمارة أسواره ، وتقبل الامراء فيه العمل، وعمل فيه السلطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده ، ومعهم القضاة والعلماء، والولاة .

قلت: في قصد الفرنج للسلطان بالقدس يقول الرشيد بن النابلسي من جملة قصيدة له:

ويح الفرنجة بل ويل أمهم
أومافهم ليب على العلات يعتبر
كم نثرتهم ضربا اذ انتظموا
وكم نظمتهم طعنا اذ انتشروا

كم قدسقيتهم ذلا فلا عجب
أن عريبدو أسفها فالقوم قدسكروا
إن يمموك فلا بدع لجهلهم
تسعى إلى الأسد في غاباتها الحمر
زاروانمورا ولا تغني وقاحتهم
إذا أسس ودك في أبطلهم زأروا
فحام عن حوطة البيت المقدس لا
خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما
فما على مجده من بعدهما حذر
وسوف تستغفر الأيام هفتوتها
وتحصد الفئسة الأوغاد ما بذروا

فصل

في باقي حوادث هذه السنة

قال العماد: في ربيع الأول منها تولى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق، وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان وراء الفرات ، وكان قد امتدت عينه الى بلاد غيره، فاستولى على السويداء، وعلى مدينة حاني، وعزم على قصد خلاط وكسر صاحبها سيف الدين بكتمر، وتملك معظم تلك البلاد، ثم اتاخ على منازل كرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة ، فأناخت بجسده المنية بسبب مرض اعتراه وزاد إلى أن بلغ منه المراد، وأخفى ولده الملك المنصور وفاته، ورحل عن البلد المحصور وفاته، وعاد به إلى البلاد التي في يده ، وعجب الناس من حزمه وعزمه وثباته وجلده، وجاءت رسلة إلى السلطان تخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البلدان وطلب منه شروطا نسبه بسببها إلى العصيان ، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب ، وشأنه ينعكس وينقلب ، حتى احتمى بالملك العادل فنصره وأظهره الى الوجود وأظهره.

وقال القاضي ابن شداد: كانت وفاته في طريق خلاط عائدا إلى ميافارقين، فحمل ميتا حتى وصل به إلى ميافارقين، ثم عملت له تربة عليها مدرسة مشهورة بأرض حماه، وحمل إليها فدفن بها.

قال العماد: وفيها توفي ابن اخت السلطان حسام الدين محمد بن عمر ابن لاجين بدمشق، ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان، ففجع السلطان بابن أخيه وابن اخته في تاريخ واحد، وكانا من أعظم الأعوان على ما يكابده من الشدائد..

قلت ودفن بالتربة الحسامية المنسوبة اليه من بناء والدته ست الشام بنت أيوب، وهي المدرسة الشامية ظاهر دمشق بالعوينة.

قال: وفيها في أواخر ذي الحجة توفي الامير علم الدين سليمان بن جندر من أكابر أمراء حلب ، وكان في خدمة السلطان بالقدس وهو شيخ الدولة وكبيرها وظهيرها ومشيرها، وهو الذي أشار بتخريب عسقلان لتتوفر العناية والأهتمام بالقدس، ثم مرض بالقدس و طلب المسير الى الوطن فأدركته المنية بقرية غباغب على مرحلة دمشق ، وفيها في الثالث من رجب كانت وفاة الصفي بن القابض نائب السلطان بدمشق ، وكان قد خدم السلطان أيام عدمه، وهو في كفالة أبيه وعمه، فلما ملك مصر أمرحه في أموالها، وحكمه في أعمالها، حتى نال المنى، ووجه ونجح وحصل على الغنى وكتب للماليكه دوره وأملاكه وجميع أمواله، وفيها توفي نسيب العماد وهو جمال الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمد بن عبيد بن كوبة سبع عشر ذي الحجة بدمشق.

قال العماد: وكنت استنبتة في كتابة الإنشاء وخرّجته ، وقلبتة في مراتب المعالي ودرّجته، واعتمد السلطان عليه في الترسل الى السلاطين العجم، وخواص الأمراء منهم والخدم، وكان نبيلاً نبيها كريماً وجيلها. وفيها توفي الحكيم الموفق اسعد بن المطران في شهر ربيع الاول، وكان من أهل النظافة والظرافة، ومن ذوي الفصاحة والحصافة ، وفقه الله في بدايته لهداية الاسلام ، ونال أسباب الاحترام، وتقدم عند السلطان ، وما شأنه كبر وهو كبير الشأن، وفي أواخر هذه السنة توفي الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشاني بمصر، وهو الذي عمر تربة الامام الشافعي رضوان الله عليه، وبنى المدرسة في جوارها، واحيا شعار التوحيد، وبنى أمره على التسديد والتشديد، وحفظ شمل الشافعية من التبديد، وكان السلطان مجيباً له الى كل ما يستدعيه، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه، ووقف على المدرسة التي بناها وقوفاً، وأعطاه في بنائها ألوفاً، فلما توفي

الخبوشاني طلب المدرسة جماعة من العلماء فردوا ، وشفع العادل في صدر الدين أبي الحسن محمد بن حمويه شيخ الشيوخ، فكتب بها له، ورتب بوقفها وتدريسها استقلاله، وذلك في أواخر سنة ثمان وثمانين ثم صرف بعد السلطان عن المدرسة، وتبدلت بالوحشة الأنسه.

قلت: ثم استقرت عليها يد أولاده واحداً بعد واحد إلى الآن.

قال: وفيها توفي الوجيه بن النفيس مستوفي ديوان دمشق بها، وكان نبيا مهيبا نزها عارفا مصيبا ، وفيها توفي القاضي أمين الدين أبو القاسم بحماه في حادي عشر رمضان، وكان كريها سخيا ناهبا سريا.

وفيها: نقلت تربة القاضي محيي الدين أبي حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وكان قاضي الموصل ، وقد بنى رباطا هناك ، وكانت وفاته بالموصل في الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ست وثمانين ، وقد تقدم ذلك وسأل ابن اخيه القاضي بعده كتابا إلى أمير المدينة فكتب له كتاب منه: «سبب اصدارها الى الامير مسير نائب القاضي كمال الدين بصريح اذن عمه محيي الدين من الموصل الى المدينة المقدسة ، على ساكنها أفضل السلام ليدفن في الرباط الذي أنشأه حيث يبعث مع شفيح الامة يوم البعث والنشور ، ويأمن ظلام اللحد المحفور ، في جوار الضياء والنور ، ويحشر بها يناله من البركة والحبور ، منشرح الصدر) اذا بعثر مافي القبور *» وحصل مافي الصدور(١٢٨) ، ولقد وفق في اختياره ايام حياته نقله إلى ذلك البيت المعمور ، فليعن الأمير على هذه المكرمة ، وليعتر بمواراته في التربة المجاورة للبقعة المعظمة . قال: وكان القاضي حزقا جواداً لبذل اللهى معتادا ، واسع المروة جامع اسباب الفتوة ، يحب معالي الامور ، فضائله متجاوزة حد الوفور.

قال ابن القادسي: ووصل الحاج في صفر بعدما اعتاقت اخبارهم ، وأخبروا أن داود أمير مكة أخذ ما في الكعبة من أموال، وأخذ طوقا كان يلزم الحجر الاسود فأوجب ذلك لشعثه ، وكان قد دخل بعض الباطنية بعد سنة أربعمائة فضربه بدبوس ، وقال: إلى كم حجر، وفي يد ذلك الرجل سيف، فما تجاسر أحد يقرب منه، فتطوع رجل وبذل نفسه للقتل ، وتقدم اليه فقتله، فأخذ الحجر وجمعت شظاياها، وألقت وجعل له طوق، فأخذ أمير مكة ذلك الطوق، فلما وصل أمير الحاج عزل داود وولى أخاه مكثرا، ونقض قلعة كان بناها على جبل أبي قبيس ، وهو داود بن عيسى ابن فليته بن قاسم بن محمد بن أبي هاشم الحسيني، ولما صرف عن مكة أقام بنخلة وتوفي بها في رجب سنة تسع وثمانين ، وهو أمير بن أمير إلى آخر من ذكرنا من آباءه وهم به ستة نفر.

قال ابن الاثير: وفي ربيع الأول سنة سبع وثمانين سار عز الدين —يعنى صاحب الموصل— إلى جزيرة ابن عمر فحصرها وبها ابن اخيه معز الدين سنجر شاه، لأنه كان سيء السيرة معه خارجا عن طاعته مساعدا للأعداء عليه، فعزم على أخذها منه فخضع وطلب العفو والصفح ، فأجابته وصالحه على قاعدة استقرت بينهما ، وعاد إلى الموصل، فعاد سنجر شاه إلى حالته الأولى، فتجاوز عنه واطرحه.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بالقدس ، وقسم سور البلد على أولاده وأخيه وأجناده ، فشرعوا في إنشاء سور جديد محقق مديد، وكان يركب كل يوم وينقل الصخر على قربوس سرجه، فيستن الأكاير والأمراء في نقل الحجارة بنهجه، ولو رأيتة وهو يحمل حجراً في حجره، لعلمت أن له قلباً قد حمل جبلاً في فكره، ولقد جد في حماية الصخرة المقدسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره حتى باشر صدور مماليكه بها الصدور، وماتعلو دار بينيها في الجنة بنقل حجارتها، ليكون ملكاً في دارها وقمرها في دارتها ، وداوم البكور في الركوب ، وعرض وجهه الكريم للشحوب.

قال: وفي ثالث محرم رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها العمران، وهم نازلون بظاهرها، جائلون في مواردها ومصادرها، فرأى الانكليز دخاناً على بعد فقصد ه ، وكان ثم جماعة من الاسدية وسيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر ، وهم غارون عما دهمهم، فوصل اللعين إليهم وقت المغرب فوقع عليهم وكانوا فريقين نازلين في موضعين ، فلما وقع على أحدهما ركب الفريق الثاني ودافعه حتى ركب الفريق الآخر فدافعوه وواقعوهم ، وساقوا قدامهم أثقالهم وخلصوا ناجين ، وسلم الله أنفسهم من أيدي الملاعين، ولم يفقد المسلمين إلا أربعة ، وكانت نوبة عظيمة دفع الله خطرها، وهون ضررها.

وفي حادي عشر المحرم كبس عز الدين جرديك بينا إلى أن عبرت قوافل الفرنج ، فساقها بأحمالها وأثقالها ونسائها ورجالها.

وفي مستهل ربيع الآخر ، وصل سيف الدين المشطوب ، وقد خلص من الأسر ، وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار، عجل منها عشرين ألفاً، وأعطاهم بالباقي رهائن ، فأحسن السلطان لقاءه وأقطعته نابلس بأعمالها ، فتوفي بها في آخر شوال .

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قتل الماركيس لعنه الله بصور، وذلك أن رجلين دخلا صور وتنصرا ، وأظهرا الترهيب والتعبد، ولزما الكنيسة وشكرهما الاقساء والرهبان ، واحبهما الماركيس ، ولم يكن يصبر عنهما، ففي بعض الايام وثبا عليه وقتلاه، فأخذا وقتلا وعرف انهما كانا من الحشيشية، فجلس مكانه الكندهري بأمر الانكلتيز وسر الانكلتيز بمصاب الماركيس، فإنه كان يضاده ويراسل السلطان في الاعانة عليه، فلما قتل سكن روعه وذهب عنه ضره، وتزوج الكندهري بالملكة زوجة الماركيس في ليلته، ودخل بها وهي حامل ، وما الحمل في ملة الفرنج عن النكاح حائل، ويكون الولد منسوباً الى الملكة ، هذه قاعدة الطائفة المشتركة، وهذا الكندهري ابن اخت ملك افرنسيس من أبيه، وملك الانكلتيز من أمه، ودخل الفرنج في حكمه وعاش إلى آخر سنة أربع وتسعين، وتولاهم دون سبع سنين .

وقال العماد في الفتح: أضافه الأسقف بصور فاستوفى رزقه، وتعدي ومادري أنه يتردى ، وأكل وشرب وشبع وطرب، وخرج وركب ، فوثب عليه رجلان وسكنا حركته، بالسكاكين، ودكاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدهما ودخل الكنيسة ، وقد أخرج تلك النفس الحشيشية، فقال الماركيس وهو مجروح ، وفيه روح : املوني الى الكنيسة فحملوه ، فلما أبصره أحد الجارحين وثب إليه وزاده جرحا على جرح، وقرحا على قرح، فأخذ الفرنج الرفيقين فألفوهما من الفداوية الاسماعيلية مرتدين، فسألوهما من وضعهما على تدبير هذا التدمير ، فقالا: ملك الانكلتيز فقتلا شر قتلة فيا الله من كافرين سفكا دم كافر، وفاجرين فتكا بفاجر، قال: ولم يعجبنا قتل الماركيس في هذه الحالة وان كان من طواغيت الضلالة، لانه كان عدو ملك الانكلتيز ومنازعه على الملك والسرير ومنافسه على القليل والكثير.

قال: وفي تاسع جمادى الأولى استولى الفرنج على قلعة الداروم، ثم حربوها، ورحلوا عنها واسروا من فيها، وكان الانكلتيز الملعون قد استفسد من نوبة عكا نقابين حلييين ، فتمكنوا من نقب المتان واحرقوا النقب ، وطلب أهل الحصن مهلة يشاورون فيها السلطان فلم يمهلهم ، وفي رابع عشرة خرجت اليزكية على الفرنج على قلعة تعرف بمجدل جناب — كذا قال في الفتح . وقال في البرق: بمجدل يابا وكذا قال ابن شداد — وقتل كند كبير ، ثم نزلوا تل الصافية ، ثم الى التطرون ، ثم الى بيت نوبة وهي وطأة بين جبال بينها وبين القدس مرحلة، وقد أهبهم المسلمون بنهبهم وأضعفوهم بسلبهم ، يتسلطون عليهم من كل ناحية ، ويكمنون لهم تحت كل رابية ، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقدس ، وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان وقد وصل العدو الى قلونية، وهي من القدس على فرسخين ، فلما رأى العدو مالا يدان له به رجع ناكصا على عقبه، والمسلمون في اثرهم يكمنون لهم وينالون منهم، وكان بدر الدين دلدردم في اليزك ، فبعث من كمن لهم عند طريق يافا، فمرت بهم فوارس ، فاستولى عليهم الكمين وماسلم منهم أحد.

وفي ثالث جمادى الآخرة كبست الكمناء قافلة ، فكسبت وسلبت واسرت.

وفي تاسعه وصل الخبر بأن الفرنج رحلوا بأسرهم ليلا وادلجوا ، ولم نعلم قصدهم ، فعرف السلطان أنه إلى طريق العسكر المصري ، فندب الامير فخر الدين الطنبا العادلي وشمس الدين أسلم الناصري ، حتى يعلموا العسكر فالتقيا بهم بالحسي واخبراهم الخبر فنزلوا وعرسوا وهم يظنون أن لاحس للعدو بأرض الحسي ، فجاءهم وفجأهم فاستولى على بعض الأموال وخلص أكثرها مع الرجال، ومن جملة من كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لأمه، فنجا بها قدر عليه من القوافل.

قال العماد :وجرى هذاكله والملكان العادل والافضل غائبان وعساكر الموصل وسنجار وديار بكر متباطئة في الاتيان، وسببه ماكان من تقي الدين وموته، وتشرط ولده في بقاء بلاد أبيه عليه، وان الافضل كان طلب من والده البلاد قاطع الفرات، ونزل عن جميع ماله من الولايات، وأنه إذا عبر إلى الرها وحران ، ملك تلك البلدان ،ورحل من القدس في ثالث صفر، وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى مااصحبه برسم الخلع والتشريفات، ووصل الى حلب فاحتفل اخوه الظاهر لقدمه، وأقام له بسنن المكارم ورسومه، ووقف بخدمته مائلا ، وبعطف الابتهاج اليه مائلا، وأحضر له مفاتيح بلده، وقدم له كل ما في يده ، وسمع ناصر الدين بن تقي الدين بما اقلقه، ودفع منه الى ما ازهجه وأزهقه، ووصل رسوله الى العادل وهو بالقدس لاجئا إلى ظله، راجياً لفضله ، لاإذا بجنابه، عائذا ببابه، فاحتفى له واحتمله، وقوى في تقويته أمله، وخاطب السلطان في حقه واستعطفه، وقال: أنا امضي إليه وأحضره، وأومنه مما يجذره، وتبقى هذه السنة عليه حران والرها ونعطيه في السنة الاخرى حماه والمعره، ثم قرر السلطان مع أخيه العادل أن يأخذ هو تلك البلاد وينزل عن اقطاعاته بمصر، ونصف خاصه، ففعل واستزاد قلعة جعبر، فامتنع الملك الظاهر من تسليمها حتى استظهر ، فسار العادل في العشر الأول من جمادى الأولى وكتب السلطان إلى الأفضل بالعود، فجاء هذا راجعا، وذهب ذلك مسارعا ، ووصل إلى حران والرها وعاد في آخر جمادى الآخرة ومعه ابن تقي الدين.

قال القاضي ابن شدّاد :عاد الأفضل منكسرا متعتبا ، فوصل دمشق ولم يحضر إلى خدمة السلطان، فلما اشتد خبر الفرنج سير إليه وطلبه فما وسعه التأخر ، فسار إليه مع العساكر الواصلة اليه من الشرق فلقية السلطان وترجل له جبرا لقلبه، وتعظيها لأمره.

قال ولما بلغ ابن تقي الدين موجدة السلطان ، أنفذ إلى العادل

يستشفع به ليطيب قلب السلطان عليه، ويقترح احد قسمين : إما حران والرها وسميساط ، وإما حماه ومنبج وسلميه والمعرة مع كفالة أخوته، فراجع العادل السلطان مرارا فلم يفعل ذلك ولم يجب الى شيء منه، فكثرت الشفاعة اليه، فحلف له على حران والرها وسميساط على أنه إذا عبر الفرات أعطي المواضع التي اقترحها، ويكفل اخوته، وتخلي عن تلك المواضع التي في يده، ثم التمس العادل خط السلطان فأبى وألح عليه فخرق نسخة اليمين ، وانقطع الحديث ، وأخذ من السلطان الغيظ كيف يخاطب بمثل ذلك من بعض أولاد اولاد أخيه، ثم أعطاه خطه بما استقر من القاعده، ثم إن العادل التمس من السلطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدين بعد انتقاله ، وجرت مراجعات كثيرة في العوض عنها، فكان آخر ما استقر أنه ينزل عن كل ما هو شامي الفرات ما خلا الكرك والشوبك والصلت والبلقاء وخاصة بمصر بعد النزول عن خبزه ، وعليه في كل سنة ستة الاف غرارة غلة تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس.

فصل

في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه

قال القاضي ابن شدّاد: وكان تقدّم الى عسكر مصر بالمسير وأوصاهم بالاحتراز عند مقاربة العدو ، فأقاموا ببلييس أياما حتى اجتمعت القوافل إليهم، واتصل خبرهم بالعدو ، ثم ساروا طالبي البلاد ، والعدو يتربخ أخبارهم ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين ، ولما تحقق العدو أمر القفل، أمر عسكره بالانحياز إلى سفح الجبل وركب في ألف راكب مردفين ألف راجل، فأتى تل الصافية فبات ، ثم سار حتى أتى ماء يقال له الحسي، فأنفذ السلطان الى القافلة ينذرهم بنهوض العدو ويأمرهم ان يبعدوا في البرية، وركب الانكليز الملعون مع العرب بجمع يسير، وسار حتى أتى القفل وطاف حوله في صورة عربي ورأهم ساكنين قد غشيهم النعاس ، فعاد واستركب عسكره، وكانت الكبسة قريبة الصباح ، فبغت الناس ووقع عليهم بخيله ورجله ، فكان الشجاع الايد القوي الذي ركب فرسه ونجا بنفسه، وانقسم القفل ثلاثة أقسام : قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعة من العرب، وقسم استولى العدو عليهم فساقهم بجماهم وأحماها وجميع مامعهم ، وكانت وقعة شنعاء لم يصب الاسلام بمثلها من مدة مديدة ، وتبدّد الناس في البرية ورموا أموالهم ، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه، وجمع العدو ما أمكنه جمعه من الخيل والبغال والاقمشة وسائر أنواع الأموال، وكلف الجمالين خدمة الجمال، والخربندية خدمة البغال، والساسة خدمة الخيل، وسار في جحفل من غنيمة يطلب عسكره ، ولقد حكى من كان أسيراً معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم الصوت أن العسكر السلطاني قد لحقهم فتركوا الغنيمة وانهمزوا ، وبعدوا عنها زمانا، ثم انكشف الأمر فعادوا ، وقد هرب جمع من الاسرى ، وكان الحاكي منهم، وأخبر أن الاسارى خمسمائة، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل،

ووصل العدو إلى مخيمه سادس عشر جمادى الآخرة، وكان يوماً عظيماً عندهم.

وصح عزمهم على القدس، وقويت نفوسهم بما حصلوا عليه من الأموال والجمال التي تنقل الميرة والازواد، ورتبوا جماعة على لد يحفظون الطريق على من ينقل الميرة، وأنفذوا الكندهري إلى صور وطرابلس، وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس حرسه الله تعالى.

ولما عرف السلطان ذلك منهم عمد إلى الأسوار فقسمها على الأمراء وتقدم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأخذ في افساد المياه ظاهر القدس، فحرب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب أصلاً، وأرض القدس لا يطمع في حفر بشر فيها ماء معين في جميعها لأنها جبل عظيم، وحجر صلب، وسير إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد.

قال: ولما كان ليلة الخميس تاسع عشر جمادى الآخرة أحضر السلطان الأمراء عنده، فحضر الأمير أبوالهيچاء السمين بمشقة عظيمة، وجلس على كرسي في خدمة السلطان، وحضر المشطوب والأسدية بأسرهم وجماعة الأمراء، ثم أمرني أن أكلمهم وأحثهم على الجهاد، فذكرت ما يسر الله من ذلك، وكان مما قلته أن النبي ﷺ لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضوان الله عليهم على الموت في لقاء العدو، ونحن أولى من تأسى به ﷺ والمصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت، فلعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو، فاستحسن الجماعة ذلك ووافقوا عليه، ثم شرع السلطان بعد ان سكت زماناً في صورة فكر، والناس سكوت كأن على رؤوسهم الطير، ثم شرع وقال: الحمد لله والصلاة على رسول الله، إعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ومنعته وأنتم تعلمون أن

دماء المسلمين وأموالهم وذرائعهم معلقة في ذمكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم فإن لو يتم أعتكم ، والعياذ بالله طوى البلاد (كطي السجل للكتاب) (١٢٩) وكان ذلك في ذمتكم فإنكم انتم الذين تصدّيتهم لهذا كله، وأكلتم مال بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يامولانا نحن بماليك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا وكبرتنا ، وعظمتنا وأعطيتنا وأغيتنا ، وليس لنا الا رقابنا وهي بين يديك ، والله ما يرجع احد منا عن نصرتك الى ان يموت ، فقال الجماعة مثل ما قال، وانبسطت نفس السلطان بذلك المجلس وطاب قلبه واطعمهم ، ثم انصرفوا ، ثم انقضى يوم الخميس على اشدّ حال في التأهب والاهتمام حتى اذا كان العشاء الآخرة اجتمعنا في خدمته على العادة وسمرنا حتى مضى هزيع من الليل وهو غير منبسط على عادته، ثم صلينا العشاء ، وكانت الصلاة هي الدستور العام فصلينا وأخذنا في الانصراف ، فدعاني رحمه الله وقال: أعلمت ما الذي تجدد ؟ قلت: لا، قال : إن أبا الهيجاء السمين أنفذ إليّ اليوم وقال إنه اجتمع عندي جماعة المماليك الأمراء وأنكروا علينا موافقتنا لك على الحصار والتأهب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك فإننا نخاف ان نحصر، ويجري علينا مثل ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام جمعاً، والرأي أن نلقى مصاف فإن قدر الله أن نهزمهم ملكنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدّة بغير القدس ، وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لاتحملة الجبال ، فشق عليه هذه الرسالة ، وأقامت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح وهي من الليالي التي أحيها في سبيل الله رحمه الله، وكان مما قالوا في الرسالة: إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد ، وانفصل الحال على ان يقيم من أهله مجد

الدين بن فرخشاه صاحب بعلبك ، وكان رحمه الله : يحدث نفسه بالمقام ، ثم منعه رأيه عنه لما فيه من خطر على الإسلام ، فلما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة لعل العين تأخذ حظها من النوم ، وانصرفت عنه إلى داري ، فها وصلت إلا والمؤذن قد أذن ، فأخذت في أسباب الوضوء ، فما فرغت إلا والصبح قد طلع ، وكنت أصلي الصبح معه في غالب الأحوال ، فعدت إلى خدمته ، وهو يجدد الوضوء فصلينا ، ثم قلت له : قد وقع لي واقع أعرضه ، فأذن لي فيه ، فقلت : المولى في اهتمامه وما قد حمل نفسه من هذا الأمر مجتهد فيما هو فيه ، وقد عجزت أسبابه الأرضية فينبغي أن يرجع إلى الله تعالى ، وهذا يوم الجمعة وهو أبرك أيام الاسبوع ، وفيه دعوة مستجابة في صحيح الأحاديث ، ونحن في أبرك موضع يقدر أن يكون فيه في يومنا هذا ، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشيء خفية بحيث لا يشعر أنه منك ، وتصلي بين الأذان والإقامة ركعتين تناجي فيها ربك ، ونفوض مقاليد أمورك إليه وتعترف بعجزك عما تصديت له ، فلعل الله يرحمك ويستجيب دعائك .

قال : وكان رحمه الله حسن العقيدة تام الإيمان ، يتلقى الأمور الشرعية بأكمل انقياد وقبول ، ثم انفصلنا ، فلما كان وقت الجمعة صليت إلى جانبه في الأقصى وصلى ركعتين ورأيته ساجدا ، وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه رحمه الله ، ثم انقضت الجمعة بخير ، فلما كان عشيتها ونحن في خدمته على العادة وصلت رقعة جرديك ، وكان في اليك يقول فيها إن القوم ركبوا بأسرهم ووقفوا في البر على ظهر ، ثم عادوا إلى خيامهم ، وقد سيرنا جواسيس تكشف أخبارهم ، ولما كان صبيحة السبت وصلت رقعة أخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أن القوم اختلفوا في الصعود إلى القدس والرحيل إلى بلادهم ، فذهب الفرنسيسية إلى الصعود إلى القدس ، وقالوا : نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس ولا نرجع دونه ، وقال الانكليتز إن هذا الموضع قد

أفسدت مياهه ، ولم يبق حوله ماء أصلا فمن أين نشرب؟ قالوا: نشرب من نهر نقوع وبينه وبين القدس مقدار فرسخ ، فقال: كيف نذهب إلى السقي ، فقالوا: نقسم قسمين قسم يذهب إلى السقي مع الدواب ، وقسم يبقى على البلد في اليك ويكون الشرب في اليوم الواحد مرة ، فقال الانكليز: إذا يؤخذ العسكر البراني الذي يذهب مع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على الباقي ، ويذهب دين النصرانية ، فانفصل الحال على أنهم حكموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكم الثلاثمائة اثني عشر من أعيانهم ، وحكم الاثنا عشر ثلاثة منهم وقد باتوا على حكم الثلاثة فما يأمرهم به يفعل ، فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرحيل فلم تمكن المخالفة ، وأصبحوا في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة ناكسين على أعقابهم والحمد لله ، ووقف عسكرهم إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة وتواتر الخبر بذلك ، فركب السلطان قدس الله روحه ، وركب الناس ، وكان سرور وفرح ، ولكن السلطان خاف على مصر لما حصلوا عليه من الجمال والظهر ، وكان قد ذكر الانكليز مثل هذا مرارا .

فصل

في تردد الانكلتيز في معنى الصلح وما جرى اثناء ذلك
الى ان تم ذلك والله الحمد

وقد ساق ذلك القاضي ابن شداد أحسن سياق، واستقصى الأمر فيه بخلاف العماد فقال: إن الانكلتيز جاء منه رسول يقول قد هلكنا نحن وأنتم والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن يعتقد أن ذلك عن ضعف مني بل للمصلحة ، ولا تغتر بتأخري عن منزلي فالكبش يتأخر لينطح، ثم جاء رسوله يقول لا يجوز لك ان تهلك الفرنج كلهم، وهذا ابن اختي الكندھري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتهم الى الشرق سمعوا واطاعوا، وإن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا اطلب منك كنيسة وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قبلت بتركها وأعرضت عنها، ولو أعطيتني مقرعة أو قرية قبلتها وقبلتها، فاستشار السلطان الامراء في جوابه فأشاروا بالمحاسنة وعقد الصلح ، لما كان قد أخذ المسلمين من الضجر والتعب، وعلاهم من الديون، واستقر الحال على هذا الجواب: إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما (جزاء الاحسان إلا الاحسان) (١٣٠) ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي وسيلغك ما أفعل في حقه من الخير وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة وبقية البلاد نقسمها، والساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا وما بين العملين يكون مناصفة ، وعسقلان وما وراءها تكون خرابا لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها كانت لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان ، فانفصل الرسول طيب القلب ، واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرسول إليهم راحلون إلى جهة عسقلان طالبون جهة مصر .

ووصل الرسول من جانب قطب الدين بن قليج أرسلان يقول ان البابا قد وصل الى قسطنطينية في خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى، وقال الرسول : إني قتلت في الطريق اثني عشر فارساً، ويقول تقدم إلى من يتسلم بلادي مني فإني عجزت عن حفظها، فلم يصدّق السلطان هذا الخبر ولا أكثر به.

ثم جاء رسول الانكليز يطلب أن يكون في قلعة القدس عشرون نفرًا وان من سكن من النصارى والفرنج في البلد لا يتعرض لهم ، وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة ، والبلاد الجبلية لكم ، وأخبر الرسول من عند نفسه مناصحة أنهم قد نزلوا عن حديث القدس ماعدا الزيارة وإنما يقولون هذا تصنعنا وأنهم راغبون في الصلح ، وأن الانكليز لا بد له من الرواح إلى بلده. فأجيب بأن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة، فقال الرسول وليس على الزوّار شيء يؤخذ منهم ، فعلم من هذا القول الموافقة ، وأما البلاد فعسقلان وماورها وقرأها لا بد من خرابه، فقال الرسول : قد خسر الملك على سورها مالا جزيلا ، فسأل المشطوب أن يجعل مزارعها وقرأها له في مقابلة خسارته ، فأجاب السلطان : وإن الداروم وغيره يخرب ويكون بلدها مناصفة ، وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها ، ومهما اختلفا في قرية كانت مناصفة ، ثم جاء الرسول يقول: الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها عند ملكك و عظمتك ، وما سبب اصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها ، وهو قد ترك القدس بالكلية لا يطلب أن يكون فيه لارهبان ولا قسوس إلا في القمامة وحدها، فترك له انت هذه البلاد ويكون الصلح عاما فيكون لهم كل ما في أيديهم من الداروم إلى أنطاكية، ولكم ما في أيديكم ، ويتنظم الحال ويروح، وإن لم ينتظم الصلح فالفرنج ما يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم.

قال القاضي: فانظر إلى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين

تارة، وبالحشونة أخرى، وكان لعنه الله مضطراً إلى الرواح ، وهذا عمله مع اضطزاره والله المسؤول في أن يكفي المسلمين مكروهه، فما بلوا بأعظم حيلة ولا أشد اقداما منه، فأجابه السلطان بأن أنطاكية لنا معهم حديث فيها ورسلنا عندهم فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح وإلا فلا ، وأما التي سأها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه، وإلا فلا قدر لها، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ماخسر عليه لد في الوطأة ، ثم عاد الرسول وقال: إن الملك قال: لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك، أما البلاد فخذوها معروفة لا منكرة فيها ، وعند ذلك تاهب السلطان للخروج إلى جهة العدو ، وإظهار القوة وشدة العزم على اللقاء ، وبلغه في العاشر من رجب أن الفرنج خذهم الله قد رحلوا طالبين نحو بيروت، فبرز من القدس الى منزلة يقال لها الجيب ، وجاء العادل من الشرق والظاهر من حلب ورحل من الجيب الى بيت نوبة، ثم رحل إلى الرملة فنزل بها على تلال بين الرملة ولدّ وركب جريدة حتى أتى يازور وبيت جن وأشرف على يافا ، ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره في اليمينه ولده الظاهر، وفي الميسرة أخوه العادل ، وركب المنجنيقات، وزحف عليها، فأرسل العدو رسولين نصرانيا وفرنجيا يطلبان الصلح، فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته، فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت تاسع عشر رجب، فإن جاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر، فأبى السلطان الإنظار، وأمر بالنقب فحشي وأحرق، فوقع بعض البدنة فوضع العدو أخشابا عظيمة خلف النقب فالتهب فمنع من الدخول في الثلمة، وقاتلت خارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحوا وقعت البدنة فعلا غبار مع الدخان، فأظلم الأفق ، وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام النار، فلما انكشفت الغبرة ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار، ورماح قد سدت الثلمة حتى عن نفوذ الأبصار، ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم ، ولقد رأيت رجلين على ممشى السور، يمنعان المتسلق فيه

من جهة الثلثة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل فقام رفيقه متصديا لمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر، بحيث لم يفرق بينهما إلا نافذ بصير، ولما رأى العدو ما قد آل الأمر إليه سيروا يطلبون الأمان ، فقال رحمه الله : الفارس بفارس، والتركيبي بمثله، والراجل بالراجل، والعاجز فعلى قطيعة القدس، فنظر الرسول ورأى القتال على الثلثة اشدّ من اضرام النار، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود فقال ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ولكن ادخل إلى أصحابك فقل لهم ينحازون إلى القلعة، ويتركون الناس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه مانع، ففعلوا وانحازوا إلى قلعة يافا بعد أن قتل منهم جماعة، ودخل الناس البلد عنوة ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغللاً كثيرة وأثاثاً، وبقايا قماش ما نهب من القافلة المصرية ، واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان ، وكان قايماز النجمي في طرف الغور لحمايته من عسكر العدو الذي بعكا فوصل منه كتاب يخبر فيه أن الانكليز الملعون لما سمع خبر يافا أعرض عن قصد بيروت، وعاد على قصد يافا ، فاشتدّ عزم السلطان على تنمة الأمر وتسلم القلعة ، وكنت ممن لم ير الأمان لأنه قد لاح أخذهم ، وكان الناس لهم مدّة لم يظفروا من العدو بمغنم يوثبهم عليه، فكان أخذهم عنوة مما يبعث همم العسكر، غير أن الأمان وقع واتفق الصلح فكنت بعد ذلك ممن يحث على اخراج العدو من القلعة وتسلمها خوفاً من لحوق النجدة، وكان السلطان يشتد حرصه على ذلك، غير أن الناس قد أقعدهم التعب عن امتثال الأمر وأخذ منهم الحديد، وشدة الحر ودخان النار بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة، وسمعنا بوق الفرنج في السحر ، فعلمنا بوصول النجدة فسيّر السلطان معي عز الدين بن جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني وعدل الخزانة شمس الدين وقال: امض إلى الملك الظاهر وقل له يقف ظاهر الباب القبلي ، وتدخل أنت ومن تراه إلى القلعة وتخرجون القوم وتستولي على ما فيها من الأموال والأسلحة وتكتبها بخطك إلى الظاهر،

وهو ظاهر البلد وهو سيرها إلينا ففعلنا ، ودخلنا القلعة وأمرنا الفرنج بالخروج فأجابوا وتبيثوا ، فقال جرديك : لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرج الناس من البلد خشية أن يتخطفوهم ، وكان الناس قد داخلهم الطمع في البلد وأخذ يشتد في ضرب الناس وإخراجهم وهم غير مضبوطين بعدة ولا محصورين في مكان فكيف يمكن إخراجهم ، وطال الأمر إلى أن علا النهار ، وأنا ألومه وهو لا يرجع عن ذلك ، والزمان يمضي ، فلما رأيت الوقت يفوت قلت له : إن النجدة قد وصلت والمصلحة المسارعة في إخراجهم فأجاب وأخرجنا خمسة وأربعين نفرأ بخيولهم ونسائهم ، وسيرناهم ، ثم اشتدت أنفس الباقين وحدثتهم نفوسهم بالعصيان ، وكانوا استقلوا المراكب التي جاءتهم وظنوا أن لانجدة لهم فيها ، ولم يعلموا أن الانكليتز مع القوم وراءهم قد تأخروا عن النزول إلى علو النهار ، فخافوا أن يمتنعوا فيؤخذوا ويقتلوا ، فخرج من خرج ، ثم بعد ذلك قويت النجدة حتى صاروا خمسة وثلاثين مركبا فقويت نفوس الباقين في الحصن ، فظهرت منهم أمارات العصيان ودلائله فقلت لأصحابنا : خذوا حذرکم ، فقد تغيرت عزائم القوم فما كان إلا ساعة بحيث صرت خارج البلد ، وقد حمل القوم من القلعة وأخرجوا من كان في البلد من الأجناد ، ولقد ازدحم الناس في الباب حتى كاد يتلف منهم جماعة ، وبقي في بعض الكنائس جماعة من رعاك العسكر مشتغلين بما لا يجوز فهاجموا عليهم وقتلوا منهم وأسروا ، ولما عرف السلطان أمر الناس زحف ، وعاد للحصار كما كان وحشروا العدو في القلعة ، واستبطئوا نزول النجدة إليهم وخافوا خوفاً عظيماً ، فأرسلوا بطركهم والقسطلان إلى السلطان يعتذران مما جرى ويسألانه القاعدة الأولى ، وكان سبب امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحوناً ببيارق المسلمين ورجاهم ، فخافوا أن تكون القلعة قد أخذت ، وكان البحر يمنع من سماع الصوت وكثرة الضجيج والتهليل والتكبير ، فلما رأى من في القلعة شدة الزحف عليهم وامتناع النجدة من النزول مع كثرتها فانها

بلغت نيفا وخمسين مركبا منها خمسة عشر من الشواني ، علموا أن النجدة قد ظنوا أن البلد أخذ، فوهب رجل منهم نفسه للمسيح ، وقفز من القلعة إلى المينا ، وكان رملاً فلم يصبه شيء وعدا إلى البحر فحدث الانكلتيز بالحديث فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشواني إلى المينا، هذا كله وأنا أشاهد ذلك فحملوا على المسلمين وأخرجوهم من المينا فقبض السلطان على الرسل وأمر بتأخير الثقل والأسواق إلى يازور، فرحل الناس وتحلف لهم ثقل عظيم مما كانوا نهبوا من يافا، وخرج الانكلتيز إلى موضع السلطان الذي كان فيه لمضايقة البلد، وأمر من في القلعة أن يخرجوا إليه لتعظيم سواده، ثم اجتمع به جماعة من الممالك طلبهم وحضر الحاجب أبو بكر العادلي، وكان قد صادق جماعة من خواص الممالك ، ودخل معهم دخولا عظيماً بحيث كانوا يجتمعون به في أوقات متعددة ، وكان قد صادق من الأمراء جماعة كبدر الدين دلد رم وغيره، فلما حضروا عنده جدّ وهزل ومن جملة ما قال : هذا السلطان عظيم، وما في الارض للاسلام ملك أكبر ولا أعظم منه كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي، ووالله ما لبست لأمة حربي ولا تاهبت لأمر وليس في رجلي إلا زربول البحر، فكيف تأخرتم، ثم قال: والله انه لعظيم، والله ما ظننت أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين، ثم قال لأبي بكر الحاجب: تسلم على السلطان وتقول له: بالله عليك أجب سؤالي في الصلح فهذا أمر لا بد له من آخر، وقد هلكت بلادني وراء البحر وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم ، فأرسل السلطان إليه في الجواب: إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة وكان الحديث في يافا وعسقلان، والآن فقد خربت هذه يافا فيكون من قيسارية إلى صور، فأرسل الانكلتيز يقول إن قاعدة الافرنج إنه إذا أعطى واحد الواحد بلداً صار تبعه وغلामه، وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي، فقال السلطان: حيث دخلت هذا

المدخل فأنا أجيبك على أن تجعل البلدين قسمين: أحدهما لك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها، ثم رتب السلطان اليزك بيازور، وأمر بخرابها وخراب بيت جن ورتب النقاين لذلك ، وسار إلى الرملة ، فغادر رسول الانكليز يشكر على إعطائه يافا، ويجدد السؤال في عسقلان ، ويقول له إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتي ههنا، فأجاب السلطان في الحال وقال: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأما تشتيته ههنا. فلا بد منها لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة، وإذا أقام أيضا إن شاء الله تعالى، وإذا سهل عليه ان يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب في عنفوان شبابه، ووقت اقتناص لذاته، مايسهل عليّ أن أشتي وأصيف في وسط بلادي وعندي أهلي وأولادي، ويأتي إليّ ما أريده وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا، وشبعت منها ورفضتها عني، والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير الذي يكون في الصيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء، ثم جاء رسول يقول: كم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي والآن فقد هجم الشتاء، وتغيرت الأنواء، وعزمت على الإقامة وما بقي بيننا حديث، ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصدا يافا، فسار رحمه الله فنزل على العوجا، ووصل من أخبره أن العدو دخل قيسارية ولم يبق فيه طمع، وبلغه أن ملك الانكليز نازل خارج يافا في نفر يسير، فوقع له أن يكبسه فأتاه فوجد خيمه نحو عشر خيم، فحملوا عليهم فثبتوا ولم يتحركوا من أماكنهم وكشروا عن أنياب الحرب، وكانوا على الموت أصبر، فارتاع المسلمون منهم ووجهوا من ثباتهم، وداروا حولهم حلقة، وكانت عدة الخيل سبعة عشر، وقيل تسعة والرجالة ثلاثمائة أو أكثر ، فوجد السلطان من ذلك موجدة عظيمة، ودار على الأطلاب بنفسه يحثهم على الحملة، ويعددهم بالحسنى على ذلك، فلم يجب دعاءه أحد سوى ولده الظاهر.

قال : وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب: قل لغلمانك الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا وأخذوا منهم الغنيمة يحملون ، وكان في قلوب العسكر من صلح السلطان على يافا شيء حيث فوتهم الغنيمة، فلما رأى السلطان ذلك أعرض عن القتال وغضب وسار إلى طرف يازور .

قال: ولقد بلغني أن الانكليز أخذ رحمة ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يتعرض له احد.

قلت: ووصل من الفاضل كتاب من دمشق يقول فيه: «الا تنصروه فقد نصره الله» (١٣١) وجواب السلطان لهم عن ملك الانكليز الا تقتلوه فقد قتله الله، ولم يزل لطيفا، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلًا وخفيفًا ، ومن كان الله عليه لم يكن قويا، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفا.»

قال القاضي: ثم سار السلطان الى النطرون، ثم إلى القدس فنظر إلى العمائر ورتبها ، ثم عاد إلى النطرون وتوافت إليه فيه العساكر، ووصل علاء الدين ابن صاحب الموصل، ثم قدم عسكر مصر وفيهم سيف الدين يازكوج وجماعة الأسدية في خدمة ولده الملك المؤيد مسعود، ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي الدين فلقية الظاهر إلى بيت نوبة، ودخل به على السلطان، فنهض واعتنقه وضمه إلى صدره وغشيه البكاء فصبر نفسه حتى غلبه الأمر فبكى الناس لبكائه ساعة، ثم باسطه وسأله عن الطريق، وكان معه عسكر جميل فقرت عين السلطان به ، ثم سار ونزل في مقدمة العسكر مما يلي الرملة، ولما رأى السلطان العساكر قد اجتمعت جمع أرباب الرأي وقال: ان ملك الانكليز قد مرض مرضا شديدا والافرنسيسية قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شك، ونفقاتهم قد قلت، و أرى ان نسير الى يافا فإن وجدنا فيها طمعا وإلا عدنا الى عسقلان فما تلحقها النجدة الا وقد بلغنا منها غرضا، فوافقوه على ذلك، فأرسل عز الدين جرديك وجمال الدين فرج سادس شعبان

حتى يكونا قريبا من يافا، هذا ورسل الانكليز لاتقطع في طلب الفاكهة والثلج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكمثرى والخوخ، وكان السلطان يمدّه بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرسل، والذي انكشف له أن فيها ثلاثمائة فارس على قول المكثّر ومائتي فارس على قول المقلل، وان الكندھري تردد بينه وبين الفرنسيّة في مقامهم وهم عازمون على عبور البحر قولاً واحداً، فسار السلطان إلى جهة الرملة وجاء رسول الانكليز مع الحاجب أبي بكر يشكر السلطان على اسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرّد به وقال له: قل لأخي — يعني — الملك العادل: يتبصر كيف نتوصل الى السلطان في معنى الصلح، ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو ههنا مع هذه الشزيمة اليسيرة يأخذ البلاد منهم، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فيأخذ لي منه عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها، فأرسل السلطان الى العادل: إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم فإن العسكر قد ضجر من ملازمة البيكار والنفقات قدنفدت، ثم ان الانكليز نزل عن عسقلان وعن العوض عنها واستوثق منه على ذلك، فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها، وأخرج الرملة منها ولدّ ومجدل يابا، ثم ذكر قيسارية وأعمالها، وأرسوف وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأخرج منه الناصرة وصفورية، وأثبت الجميع في ورقة وقال للرسول: هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد اعطيتكم يدي، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد، وإلا فتعلم أن هذا تدفيع ومحاولة، وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خراباً وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها، واشترط دخول بلاد الاسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب انطاكية وطرابلس في الصلح، وشرط أن تكون الرملة ولد بين المسلمين وبينهم مناصفة، واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الاربعاء الثاني والعشرين من شعبان، ورضي الاستتارية والداوية وسائر

مقدمي الافرنجية بذلك، ولم يحلف الانكلتيز ، بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لا يحلفون ، وقنع من السلطان بمثل ذلك، ثم حلف الجماعة، فحلف الكندهري ابن اخته المتخلف عنه في الساحل، وبالبيان ابن بارزان وابن صاحبة طبرية، ووصل ابن الهنفرى وابن بارزان وجماعة من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح واقترحوا حلف جماعة: العادل، والأفضل ، والظاهر، والمنصور، وسيف الدين المشطوب، ودلدرم ، وابن المقدم، صاحب شيزر، وكل مجاور لبلادهم، وحلف صاحب انطاكية وطرابلس، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين.

قال: ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط بيدي الطاعة والموافقة، وتسيير العسكر، وحضر رسول الكرج وذكر فصلا في معنى الديارات التي لهم في القدس، وعمارتها وشكوا من أنها أخذت من أيديهم، ويسأل ردها إلى أيدي نوابهم، وورد رسول صاحب أرزن الروم يبذل الطاعة والعبودية. قال العماد: وعقدت هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر، وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور، وادخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر، اولها مبتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان.

قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرجال والاسلحة والأقوات ليتقوا بها على فتح القدس، لتكون لهم ظهرا وعونا لقربها من البيت المقدس.

قلت : ومن الألفاظ الفاضلية: «وقد فعلت الاقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف تشنع ملك انكلتيز بالعدو وهو لعنه الله قد أتى بأقبح العذر وأفحشه في أهل عكا نهارا

جهارا، وشهد بخزيه وفضيحتة المسلمون والنصارى ، وغدر الفرنج
معلوم:

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها
ومن عهدها أن لا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون اذا قووا، ونحن ننتظر في ملكك
الانكلتيز ماتفصح عنه المقادير في أمره إما الهلاك ، ولا بأس بها، فيلقى
الأحبة المريكس، والدوك، وملك الالمان ، ويؤنس في النار غربتهم، ويكثر
عدتهم، وإما أن يعافى، فهو بين أمرين إما أن يرجع إلى لعنة الله وإلى
مروءة البحر في تغريقه وإما أن يقيم، فهناك قد أبدى الشر ناجذيه،
ونكص الملعون من الوفاء على عقبه، وانتظر الفرصة ليتتهز، والعمرة
ليشب».

ومما قيل في هذه الهدنة أبيات من قصيدة نجم الدين يوسف بن
الحسين بن المجاور، والتي تقدّمت في فتح البيت المقدس وهي:

يا صاح قل للانكلتيز الكلب دع
عنك الجنون وخذ مقالة منصف
القدس ما فيه لسرجك مطمع
كلا ولا نور الاله بمنظفي

والمسجد الأقصى فعنه تقص من
وقع الدباييس الأليمة تعرف
واستفت نفسك فهي أخبث ناصح
واترك متابعة اللجاج المتلف
واعجب لرمح بالرووس معمم
واطرب لسيف بالدماء مغلف

قد قلت لما قيل صلح قد جرى
هذا حديث مخرف ومخرف

سلف تولى السيف عقد شروطه
أجيب به من مسلم ومسلم
ظنوه سلماء وهم في أرواحهم
سلم إلى أجل لهم متخلف

وذكر أبو الحسن الساعاتي الانكليزي هذا في قصيدة مدح بها السلطان
رحمه الله يقول فيها:
منعت ظباء المنحنى بأسوده
وأشد ما أشكوه فتك ظبائه
فعلت بنا وهي الصديق لحاظها
كظبي صلاح الدين في أعدائه
سل عنه قلب الانكتاز فإن في
خفقاته ماشئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع
ولسأل سيبل نداءه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما
لترنم الناقوس في أفنائه

فصل

فيما جرى بعد الهدنة

قال القاضي : أمر السلطان أن ينادى في الوطاقات والأسواق : ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل في بلادهم فليفعل، وأشاع رحمه الله ان طريق الحج قد فتح من الشام، ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضر ذلك جميعه، وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير، وإخراج الفرنج منها ، ويكون معهم جماعة من الفرنج الى حين وقوع الخراب في السور خشية من استبقائه عامراً، ففعل ذلك ، وخربت، وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى، والله العالم ان الصلح لم يكن من ايثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصلح: «أخاف أن أصالح وما أدري ايش يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقي لهم هذه البلاد فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلبه—يعني حصنه—وقال: لا أنزل ويهلك المسلمون» فهذا كلامه، وكان كما قال رحمه الله، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأم العسكر وبجاهرتهم بالمخالفة، وكان ذلك مصلحة علمها الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح، ولو كان اتفق ذلك في اثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة من الله رحمة الله عليه.

ورحل السلطان الى النظرون واختلط العسكران، وذهب جماعة من المسلمين الى يافا في طلب التجارة، ووصل خلق عظيم من العدو الى القدس للحج، وفتح لهم السلطان الباب في ذلك، ونفذ معهم الخفراء يحفظونهم حتى يردوهم الى يافا، وكان غرض السلطان بذلك ان يقضوا

وطرهم من الزيارة ويرجعوا الى بلادهم، فيأمن المسلمون شرهم، ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صعب عليه ذلك وسير الى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح ان لا يأذن لأحد إلا بعد حضور علامة من جانبه او بكتابه، وعلمت الفرنجية ذلك فعظم عليها واهتموا في الحج، فكان يرد في كل يوم منهم جموع كثيرة مقدّمون وأوساط وملوك متنكرون، وشرع السلطان في اكرام من يرد ومدّ الطعام لهم ومباستطهم ومحادثتهم، وعرفهم انكار الملك ذلك، وأذن لهم السلطان في الحج وعرفهم انه لم يلتفت الى منع الملك من ذلك، واعتذر الى الملك بأن قوما وصلوا من ذلك البعد ويُسّر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا استحل منعهم، ثم اشتدّ المرض بالملك فرحل ليلة الاربعاء التاسع والعشرين من شعبان، وقيل انه مات، وسار هو والكندھري وسائر المقدّمين الى جانب عكا، ولم يبق في يافا إلا مريض أو عاجز و نفر يسير، ثم أعطى السلطان للناس دستورا، فسار عسكر إربل والموصل وسنجار والحصن، وأشاع رحمه الله أمر الحج، وقوي عزمه على براءة الذمة منه.

قال القاضي: وكان هذا مما وقع لي وبدأت بالاشارة به في يوم تنمة الصلح، ووقع منه رحمة الله عليه، وقعا عظيما، وأمر الديوان أن كل من عزم على الحج من العسكر يثبت اسمه حتى يحصي عدة من يدخل معنا الطريق، وكتب جرائد بها يحتاج إليه في الطريق من الخلع والأزواد وغير ذلك وسيرها إلى البلاد ليعدوها، ورحل من النظرون رابع شهر رمضان وسار حتى أتى مار صمويل يفتقد أخاه العادل وكان مريضا بها فوجده قد سار إلى القدس، وكان قد انقطع عن أخيه مدة بسبب المرض، وكان قد تماثل فعرف بمجيء السلطان إلى مار صمويل لعيادته فحمل على نفسه وسار حتى لقيه بذلك المكان، وهو أول وصوله ولم ينزل بعد، ونزل وقبل الأرض وعاد ركب فاستدناه وسأله عن مزاجه، وسارا جميعا حتى أتيا القدس بقية ذلك اليوم.

وقال العماد: عاد السلطان بعد السلم إلى القدس لتفقد أحواله، وعرض رجاله واشتغل بتشديد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها، وتعميق خنادقه ، وتوثيق طرائقه، وزاد في وقف المدرسة (١٣٢) سوقا بدكاينها وأرضا ببساتينها ، وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها ، والوقف الكافل بكفائتها ، وعين الكنيسة التي في شارع قمامة للبيمارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان ، وأدار سور القدس على قبة صهيون وأضافها إلى المدينة، وأمر بإدارة الخنادق على الجميع، وصمم العزم على الحج فلم يوافقه القدر، وتأسف على فواته بعد أن قدم مقدماته وأقام شهر رمضان ، وأفاض الإحسان ، وفوض ولاية القدس كعمل الخليل ، وغزة والداروم، وعسقلان.

قلت: ولما بلغ القاضي الفاضل من قبل السلطان أنه عازم على الحج كتب إليه مشيراً بتبطله: « إن الفرنج لم يخرجوا بعد من الشام ، ولا سلوا عن القدس، ولا وثق بعهدهم في الصلح، فلا يؤمن مع بقاء الفرنج على حالهم وافتراق عسكرنا، وسفر سلاطيننا سفراً مقدراً معلوما مدة الغيبة فيه أن يسروا ليلة فيصبحوا القدس على غفلة ، فيدخلوا إليه ، والعياذ بالله ويفرط من يد الإسلام ويصير الحج كبيرة من الكبائر التي لا تغفر ومن العثرات التي لا تقال» ثم قال: « وحاج العراق وخراسان أليس هم مائتي ألف وثلاثمائة ألف وأكثر ، هل يؤمن أن يقال قد سار السلطان لطلب ثار وسفك دم وتشويش موسم ، فاقعدوا والا فيكون تاريخ سوء، أعوذ بالله منه، ما هذه الشناعة ممتنعة الوقوع ، ولا مستبعدة من العقول السخيفة ، فينعم المولى بتأمل ما أنناه المملوك مستورا فإنه يسأل مولانا أن لا يشارك أحدا فيما يكتبه لا من مهم ، ولا من غير مهم، يا مولانا مظالم الخلق كشفها أهم من كل ما يتقرب به إلى الله وما هي بواحدة في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر، ومن تسلط المقطعين على المتقطعين ما لا ينادي وليده، وفي وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف الذي يقطر دما مالا زاجر له،

وللمسلمين ثغور تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهمات إقامة وجوه الدخل وتقدير الخرج بحسبها ، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل ، وفرع من غير أصل ، وهذا أمر قد تقدم فيه حديث كثير ، وعرضت للمولى شواغل دونه ، ومشيت الأحوال مشيا على ظلع ، فلما خلت النوب أعاذ الله من عودها ، كان خلو بيت المال أشد ما في الشدة ، وليس المملوك مطالبا بذخيرة تحصل إنما يطلب تمشية من حيث يستقر» .

قلت: ولم يزل البيت المقدس شرفه الله تعالى ملحوظا بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله إلى سنة ست عشرة وستائة، فإنه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج لعنهم الله وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه، وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورجبوا عن السكني به، وراثه الرئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب ابن محمد المجاور بقصيدة منها :

أعيني لا تترقي من العبرات

صلي في البكا الأصال بالبكرات

لعل سيول الدمع يطفىء فيضها

توقد ما في القلب من جمرات

ويأقلب اسعر نار وجدك كلما

خبث بأذكار يبعث الحسرات

ويافم بح بالشجو منك لعله

يروق ما ألقى من الكربات

على المسجد الأقصى الذي جل قدره

على موطن الاخبات والصلوات

على منزل الاملاك والوحي والهدى

على مشهد الابدال والبذللات

على سلم المعراج والصخرة التي

أنافت بها في الارض من صخرات

على القبلة الأولى التي اتجهت لها
صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمر وأكرم عامر
وأشرف مبنئى لخير بنساء
وما زال فيهِ للنبين معبد
يوالون في أرجائه السجادات
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الـ
رفيع العماد العالى الشرفات
عفا بعد ما قد كان للخير موسما
وللبه والاحسان والقربات
يوافى اليه كل أشعث قانت
لمولاه برردائم الخلسوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها
توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحنزهم
فمن بين نواحي وبين بكاة
لتبك عليها مكة فهي أختها
وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة
وتشرحه في أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها
ويطاطا ما غادتها بشمات
لقد شتموا عنها جماعة أهلها
وكل اجتماع مؤذن بشتمات
وقدموا مجد الصلاح بهدمها
وقد كان مجدا باذخ الغرفات
وقد أخذوا صوتا وصيتا أثاره
لهم عظم ما والوا من الغزوات

أما علمت أبناء أيوب أنهم
بمسعاته عدوا من السروات
وإن افتتاح القدس زهرة ملكهم
وهل ثمرا لأمن الزهرات
فمن لي بنوح ينحن على السذي
شجاني بأصوات هن شجاة
يرددن بيتا للخزاعي قاله
يؤب من فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلعت من تلاوة
ومنزل وحي مقفر العرصات (١٣٣)

قلت: هذا البيت الأخير لدعبل بن علي الخزاعي في أول قصيدة يرثي
بها أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه السنة التي توفي فيها
العادل قبل التي خرب فيها القدس، هي السنة التي نزل فيها الفرنج
خذلهم الله على ثغر دمياط حرسه الله تعالى، وهي المرة الأولى في زماننا
وأقاموا عليه إلى أن استولوا بعد أن جرى لهم نحو مما جرى لهم على
عكا، ثم أخذه المسلمون منهم، وقتلوا وأسروا ثم إن الفرنج استولوا عليه
صلحا في سنة خمس وعشرين وستمئة وشرعوا في بناء طائفة منه، ثم
أخرجوا منه عنوة مرتين أخرجهم في إحدى المراتين الملك الناصر صلاح
الدين داود بن المعظم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب،
وقال فيه حينئذ بعض شعراء العصر، هذا الشاعر هو الصاحب جمال
الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:

المسجد الأقصى له عادة

سارت فصارت مثلا سائرا

إذا غدا للكفر مستوطنا

أن يبعث الله له ناصرا

فناصر طهره أولا

وناصر طهره آخرا

ثم استولى الفرنج أيضا على طبرية وعسقلان، ثم أخذتا منهم عنوة في شهور سنة خمس وأربعين وستمائة في دولة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقد استولوا أيضا على الشقيف وصفد، والله يسهل عودهما إلى أهل الاسلام، ويؤيد الدين الحنيفي على ممر الايام .

فصل

في مسير السلطان رحمه الله من القدس إلى دمشق

قال العماد: ولما استتم السلطان النظر في أحوال القدس وعماراته، وفوض القضاء والنظر في الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع ابن تميم، وعول منه على أمين كريم، آثر أن يعود إلى دمشق على الثغور عابرا، وفي أحوالها ناظرا، وكان عزم على الحج، وصمم، وكتب إلى مصر واليمن بما عليه عزم، وأمر أن يحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات، والثياب والكسوات، فقبل له: لو كتبت إلى أمير المؤمنين وأعلمته بحجك، وعرفته بنهجك حتى لا يظن بك أمر أنت منه بري، ويعلم أن قصدك في المضي مضى والوقت قد ضاق، ويبلغ الخبر الآفاق، ثم هذه البلاد إذا سافرت تركتها على ما بها من الشعث، وهذه المعامل التي في الثغور حفظها من أهم الأمور، ولا تغتر بعقد الهدنة، فإن القوم على ترقب المكنة والغدر دأبهم، فما زال به الجماعة حتى حلوا عقد عزمه على الحج فشرع في ترتيب قاعدة القدس في ولايته وعماراته .

ثم خرج من القدس يوم الخميس خامس شوال وجاوز ناحية البيرة، وبات على بركة الداوية، ونزل يوم الجمعة ظاهر نابلس، وأقام بها إلى ظهر يوم السبت حتى كشف مظالم ووظف مكارم، وكان بها سيف الدين المشطوب، وشكا أهلها نوائب من جهته تنوب، فأزال الشكوى، وأزاح البلوى، ورحل بعد ظهر السبت وبات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسه، ورتعنا في مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين ونزلنا ضحوة على جينين، وهناك ودعنا المشطوب، وداع الأبد فإنه انتقل بعد أيام إلى رحمة الواحد الصمد، وجئنا ضحوة الإثنين إلى بيسان وصعد إلى قلعتها المهجورة الخالية فأبصر قللها العالية، وقال: الصواب

بناء هذه وتخريب كوكب، وصعد نظر رأيه فيها وصوّب، ورحل ضحوة
الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشاء، وهناك لقينا بهاء الدين قراقوش وقد
خرج من الأسر وتلقيناه بالبشر والبر ، ووصل مع السلطان إلى دمشق
وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأسر ، وتوجه إلى مصر وقد ضاق
نفسه ببذل ماله ، وخرج من ثروته ودخل في اقلاله .

قال: وتوالت تلك الليلة الأمطار وواصلها النهار، فأقمنا يوم الأربعاء ،
وسرنا بكرة الخميس ونزلنا بسفح الجبل الذي عليه قلعة صغد، وصعد
إليها وكمل فيها الرجال والعدد، ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل
عاملة إلى قلعة تبين، وجاز يوم الأحد على هونين، وخيمنا على عين
الذهب عند نزولنا من الجبل، واجتمعنا تلك الليلة بالثقل، ثم سرنا إلى
مرج عيون مرحلة، وإلى جسر كامد منزلة، وطريقنا بين عمل صيدا
ووادي التيم ، وطلعنا من تلك الأودية والشعاب طلوع الأنوار من الغيم.

وقال في الفتح: على صيدا يسرة ، وعمل وادي التيم يمنا، وعرسنا
على مرج تلفيئا مقابل مرج القنعبه، ودفعنا إلى سلوك المسالك الصعبة،
ورحلنا يوم الثلاثاء إلى البقاع فخيمنا على جسر كامد ويوم الأربعاء
بناحية قب الياس، ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين
سامه فاهتم له بالكرامه، ولما أراد عن بيروت الانفصال في الحادي
والعشرين من شوال قيل له : إن الابرنس الأنطاكي ييمند ، مع عصابة
من الوفد قد وصل إلى الخدمة مستمسكا بحبل العصمة ، فثنى عنانه
ونزل وأقام وما ارتحل ، وإذن للابرنس في الدخول وشرفه في حضرته
بالمثل ، وقرّبه وأنسه، ورفع مجلسه وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة
عشر بارونيا ، فوهب كلا منهم تشريفا سريا ، وأجزل له ولهم العطاء،
وأبدى بهم الاعتناء، وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ
عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبار ، وأعجبه استرساله إليه
ودخوله بغير أمان عليه ، فلا جرم تلقاه بالاحسان ووافقه ، وودعه يوم

الأحد وفارقه، وكانت الأثقال قد انتقلت من قب الياس إلى مرج قلميطة من البقاع فبات في المخيم، وعبر يوم الإثنين عين الجرّ إلى مرج ييوس، وقد زال البوس، وهناك توافد أعيان دمشق وأماثلها وأفاضلها وفواضلها، ونزلنا يوم الثلاثاء بالعزّاده، وجرى الملتقون بالطرف والتحف على العاده، وأصبحنا يوم الأربعاء إلى جنة دمشق داخلين بسلام آمنين، لو لا أننا غير خالدين، وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها، وأبرزت نساءها ورجالها، فكانت يوم الزينة، وخرج كل من في المدينة، وحشر الناس ضحى وأشاعوا استبشاراً وفرحاً، وكانت غيبة السلطان في الجهاد طالت، فاهتزت بقدمه واختالت، وقرت بفضائله الأعين وأقرت بفواضله الألسن، وأبدوا وجوه الاستبشار وألسن الاستغفار وأعين الاستعبار، ورفعوا أيدي الابتهاج بصالح الدعاء عن خالص الولاء، وجاء ربيع الفضل في فصل الخريف، واتصل تليد الجد بالطريف، واتسع فضاء الفضائل، وارتدع جاه الجاهل، وحل في القلعة حلول الشمس في برجها، وأخذت بحار سماحه في موجهها، وجلس في دار العدل فأجاب وأجار، وأنال وأنار، وخرجت السنة والسلطان في أسنى سنائه، وأبهى جلاله، وأجلى بهائه والناس راتعون في رياض نعمائه، ورسل الممالك الغربية الشرقية يخطبونه ويطلبونه، وينتظرون عزمه ويرقبونه، وهو يعدهم بانحسار الشتاء وانكساره، وابتسام ثغر الربيع وافتراره، وأقمنا على هذا العزم إلى آخر السنة، والسلطان مشغول بالصيد والقنص، منتهز من العمر للفرص، وقرب العلماء وأكرم الفضلاء، وفضل الكرماء، وما كان أحسن إلى الحق أصغاه، وأشرع للباطل ألغاه.

وقال القاضي أبو المحاسن: أقام السلطان بالقدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً، ويتأهب للمسير إلى الديار المصرية، وانقطع تشوفه إلى الحج، ولم يزل كذلك حتى صح عنده اقلاع مركب ملك الانكليز المخذول متوجهاً إلى بلاده في مستهل شوال، فعند ذلك حرّر السلطان

عزمه على أن يدخل الساحل جريدة، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ويدخل دمشق يقيم بها أياما قلائل ويعود إلى القدس الشريف سائراً إلى الديار المصرية لتفقد أحوالها ، وتقرير قواعدها والنظر في مصالحها .

قال: وأمري بالمقام بالقدس إلى حين عوده لعمارة نيبارستان انشأه فيه، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عوده، وخرج من القدس، وودعته إلى البيرة، ونزل بها، ثم ذكر ازالته للمظالم عن بلد نابلس. ثم رحل ونزل بسبسطيه فتفقد أحوالها، ثم أتى في طريقه إلى كوكب في عاشر شوال، وانفك بهاء الدين قزاقوش من الأسر حادي عشر شوال ومثل بالخدمة السلطانية، ففرح به فرحاً شديداً، وكان له حقوق كثيرة على السلطان والاسلام، واستأذن السلطان رحمه الله في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة، فأذن في ذلك وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفاً.

قال: ولما وصل السلطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية مسترفداً، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعمق و ارزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار، ثم سار السلطان إلى دمشق بعد الفراغ من تصفح أحوال القلاع الساحلية بأسرها، والتقدم بسد خللها واصلاح اجنادها، وإشحانها بالرجال فدخل دمشق بكرة الأربعاء سادس عشري شوال، وفيها أولاده: الأفضل، والظاهر، والظافر، وأولاده الصغار، وكان يحب البلد ويؤثر فيه الإقامة على سائر البلاد، وجلس للناس في بكرة الخميس، وحضر عنده الناس وبلوا شوقهم من رؤيته وأنشده الشعراء، وعم ذلك المجلس الخاص العام، وأقام ينشر جناح عدله ويهطل سحاب انعامه وفضله، وكشف مظالم الرعايا في الأوقات المعتادة، واتخذ الأفضل يوم الإثنين مستهل ذي القعدة دعوة لأخيه الظاهر، وكان الظاهر لما وصل دمشق بلغه حركة السلطان إليها فأقام بها حتى يتملى بالنظر إليه ثانيا

وكان نفسه الشريفة كانت قد أحست بدنو أجل السلطان ، فودّعه في تلك الدفعة مراراً متعددة وهو يعود إليه، ولما اتخذ الأفضل له الدعوة أظهر فيها من بديع التجميل وغريبه ما يليق بهيمته، وكانه أراد مجازاته عما خدمه به حين وصل إلى حلب المحروسة، وحضرها أرباب الدنيا وابناء الآخرة ، وسأل السلطان رحمه الله الحضور فحضر جبراً لقلبه .

قال: وكان العادل قد استأذن السلطان في أواخر رمضان في القدس بالمضي إلى الكرك لتفقدتها ، فمضى وأمر باصلاح ما قصد اصلاحه، وعاد طالبا المضي إلى البلاد الفراتية التي أعطاها السلطان إياها، فوصل دمشق سابع عشرين ذي القعدة، وخرج السلطان إلى لقائه وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقيه، وسارا جميعا يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق في الحادي والعشرين منه ، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق ومواطن الصبي ، وكأنه وجد به راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب ، وسهر الليل ونصب النهار ، وما كان ذلك إلا كالوداع لأولاده ومرابع نزهه وهو لا يشعر رحمة الله عليه، ونسي عزمه المصري، وعرض له أمور آخر وعزمات غير تلك، ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني إلى خدمته ، وكان شتاء شديداً ووحلاً عظيماً .

قلت: وفي عيد الأضحى من هذه السنة أنشده الرشيد النابلسي قصيدة حسنة على وزن قصيدة التهامي التي مطلعها: « حازك البين حين أصبحت بدرا» يقول فيها يعني قصيدته:

وأبىها لولا تغزل عينيها

لما قلت في التغزل شعرا

ولكأنت مدائح الملك النا

صر أولى مافيها أعمل فكرا

ملك طبق المالك عدلا

مثل ما أوسع البرية برا

ثم قال في آخرها :

نلت من الدين والدين

يا فتية على الملوك وفخرا

فتمل الأعياد صوما وفطرا

وتلق الهناء فطرا ونحرا

يامر الطاعات لله ان أض

حى عليك على الهنائة مصرا

قد جمعت المجدين أصلا وفرعا

وملكت الدارين دنيا وأخرى

فصل

في ذكر أمور أخر جرت في هذه السنة من وفيات وغيرها

قال العماد : في شهر ربيع الآخر توفي القاضي شمس الدين محمد بن موسى المعروف بابن الفراش، من أهل دمشق، قاضي العسكر ، وكانت وفاته بملطية وهو عائد من الرسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالروم، وكان هذا القاضي لي من أصدق الأصدقاء، وأكرم الكرماء، وما فارقتني من أيام الملك العادل نور الدين رحمه الله في السراء والضراء ، وكنت بأحواله شديد الاعتناء ، وتوصلت له عند السلطان في تخصيصه بالمواصلة الموصلية ، والمراسلة في المهام الخفية والجلية، ثم تولى نيابة عن السلطان في الولاية الشهرزورية ، والحكم على المقطعين بها وإنصاف الرعية ، فلما فوضت إلى مظفر الدين صاحب إربل رجع شمس الدين ودامت غيبته عن الحضرة مدة سبع سنين ، وكان تولى قضاء العسكر موضعه بهاء الدين بن شدّاد ، وكان خطب أولاد السلطان قليج أرسلان مهما عند السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدين في الوصول إليهم ، والحكم بتأليف ذات بينهم عليه، فمضى وعاد وأدركته المنية بمدينة ملطية.

قال: وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شوال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، المعروف بالمشطوب بنابلس، وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته واصابته وأصالته ، وإقدامه في الحروب ، وتقدمه في الخطوب ، وقد حضر مع أسد الدين شيركوه النوب الثلاث التي فتح في آخرها مصر ، ولازم صلاح الدين إلى منتهى العمر ، ولما احتيج إلى البديل في عكا إذ ضجر من أقام به وتشكى أجاب إلى دخوله وقابل الأمر بقبوله ، وحصل بقضاء الله في الأسر، واحتوت عليه قبضة الكفر ، وفدى نفسه بخمسين ألف دينار ونجا، وآتاه الله من نعمة خلاصه ما رجا، وأنعم السلطان عليه بنابلس وأعمالها، وخص بأموالها ،

وحين جزنا ودّعنا عند جينين ، وداع الأبد إلى جنة عليين ، وإنما سمي مشطوبا لشطبة في وجهه من أثر طعنة في غزاة حضرها ، وله مواقف في الجهاد كثيرة معهوده ، ومقامات مشهورة مشهودة ، ووقف السلطان بعده ثلث نابلس وأعمالها على مصالح القدس ، وأقطع ولده وأميرين معه الثلثين محافظة على حقه الذي التزمه التزام الدين .

وقال القاضي ابن شداد : وكان السلطان خلف المشطوب بالقدس من جملة العسكر المقيمين به ولم يكن واليه إنما كان واليه عز الدين جرديك ، وتوفي المشطوب رحمة الله بالقدس يوم الأحد الثالث والعشرين من شوال ، و دفن في داره بعد أن صلي عليه في المسجد الأقصى .

قال العماد: وفي منتصف شعبان توفي سلطان بلاد الروم عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بقونيه، وكان أولاده لما كبروا تجبروا وتفرد كل منهم باقليم ، فضعف بقوتهم ، وعجز بقدرتهم ، وانخفض برفعتهم ، فإنه فرق بلاده على جماعتهم ، طمعا في طاعتهم ، واختار لتدبير ملكه اختيار الدين حسن بن غفراس ، فخالفه عليه من أولاده قطب الدين ملك شاه صاحب سيواس ، فجاء وغلب على والده وأخذ عليه الأنفاس ، وقال له: أنا بين يديك عوض الاختيار ، ثم أدخل منه الديار ، ثم أبعده عن خدمة والده خواصه وأولياءه ، وأفنى بالقتل والاختيال أمراءه وكبراءه ، واستخلصه لنفسه ، وأجلسه على ملكه وهو في حبسه ، ثم جاء به إلى قيصرية ليأخذها من أخيه ، وأظهر أنه بأمر أبيه ، فوجد قليج أرسلان فرصة في خلاصه ، فساق وحده ودخل البلد ونجا من الولد إلى الولد ، فعاد ملكشاه إلى قونيه واقصرا دار ملك أبيه فتملكهم ولم يزل قليج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد ، ومن بلد إلى بلد يتردد في بلاده في ضيافة أولاده ، وكلهم يضحجر منه ، ويعرض عنه ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو صاحب برغلو ، فلما حضره

وأبصره آواه ونصره ، وجاء به إلى قونيه فدخلها ، وحلى عطلها ، ومات بها ، فجلس مكان والده ، وقوي على أخيه .

قال : وجاء الربيع في شهر ربيع الأول ، فكتب إلي نشو الدولة أحمد ابن نفاذه أبياتا يدعوني إلى دمشق في خامس جمادى الأولى ، وقد دخل أوان المشمش المعهود ، وهو موسم دمشق المشهود ، أولها :

دعا الناس للذات مشمش جلق
فقد أسرعوامن كل غرب ومشرق
فقم يا عماد الدين تحظ بأكله
ولا تثن عنه عزيمة السير تسبق
وقل حين يبدو أصفر اللون مشرقا
ويا حسنه من أصفر اللون مشرق
لاكلك ما يلقي الفؤاد وما لقي
وللنوب ما لم يبق مني ومباقي
فليس سوى الحلواء في القدس مأكلا
وما جلبوه من زبيب وفستق

قال : فعرضت أبياته على السلطان فقال : ما قلت في جوابه ، فأنشده :
هلم وانسابق نحو مشمش جلق
وثم كما نهوى على الأكل ننتقي
تصفر شوقا لا تظار قدومنا
ومن يتعشق ذا الفضائل يشفق
إذا حضرت أطباقه غاب رشدنا
لما يتلقى من مشوق وشيق
حكى جمرات بالفضا قد تعلق
فيا عجبني من جمره المتألق
كان نجوم الأرض فوق غصونه
فيا حيرتي من نجمه المتألق

وجناتها محمورة وجناتها
فمن يرهما مثلي يحب ويعشق
بسدت بين أوراق الغصون كأنها
كرات نضار في لجين مطرق

قال: فلما أنشدت السلطان هذا البيت، قال: تشبيه الورق باللجين
غير موافق فإن الورق اخضر فقلت:

كرات نضار بالزمر مدق
تساقطها أشجارها فكأنها
دنائر في أيدي الصيارف ترتقي
ومشمش بستان الزكي بشهده
شهادته تقضي فزك وصدق
يقول رفيقي في دمشق تعجبا
أمالك بستان مقالة مشفق
فقلت إلى باب البريد وسوقه
لأمثالنا تجني بساتين جلق
ولو كان لي بالسهم سهم وجدت لي
منالي بأيام الثمار ومرفقي
إذا كنت مبتاعا من السوق مشمسي
فمالي إلا لذة المتسوق
ومالي بأرباب البساتين خلطة
فيصبح في حيطانها متسلقي
كرام وثوقي في الشتاء بودهم
ولكنهم في الصيف ينسون موثقي
ومائم من يجدي ويقري ويقنني
ثنائي سوى المحيي الكريم الموفق
وذلك يوم ليس غيره
أمن أجل يوم واحد قلت لي اسبق

على أنني لوقيل بالصين دعوة
أثرت اليها الوعة المتحرق
فلإن جئت قبلي جلقا فارم منعا
حديثي بنادي المنعمين وحلق
لعل كريبما ينتخي لضيافتي
بمشمشة عند القدوم وينتقي
فلاتنس نشوالدين نشوة خاطري
وقل عن صبوحى كيف شئت ورقق
وهات وساعدي وخذ من قريحتي
لطيمة دارى من الحمد واعبق

قال: فقال لي السلطان عن صبوح ترقق، كأنك تريد تمضي إلى دمشق
وتسبق فقلت: الأهل والولد، وقد عيل عنهم الجلد، ولكن مغيبى عن
الخدمة لا يدور به الخلد، وظلك وهو السكن والبلد.

قال: وكتبت أيضا في جوابه، وصفة المشمش، وذكر تشبيهاته، وقد
اذن لي السلطان لهم له أيضا اتفق:
قد صبح عزمي على المسير فلا
أبغى مقامي والقلب قد رحلا
امضى إلى دميمة مقبلها
أرشف منه المدام والعسلا
مصوّر بل مدور عجب
ترى به وهو جامد شعلا
ففي قلوب الأشجار منه جذي
وفي ظهور الغصون منه كلا
طلو بها النضار ظاهره
لباطن في حشاه نار طلا
يخفي إذا ما بد العينك في
فيك وفيه النوى اذا وصللا

حلى تبر على عرائس أغصنا
ن تشكيت من قبلها عطلا
حمر حسان الوجوه قند لبست
من خضر أوراقها لها حللا
عرائس من خدورها برزت
تحسب أشجارها لها كلالا
حلاوة لا يمل أكلها
إذا الحلوات أحدثت مللا
زهركشهب السماء راجمة
جن جناة بقطفها كفلا
عيونها الرمد في ترقبنا
جأحظة أبرزت لنا مقلا
ماذا التواني وذا التآخر وال
بطاء قدم مسيرنا عجلا
نغدو خفافا إلى مواسمها
من قبل نبلى بصحبة الثقة لا
قد انتظرنا من الخزانة ما
نعطى فأكدى نوابها البخلا
فإن عدمنا من عندهم ذهبنا
فما عدمنا عنه به بدلا
وكلنا في عوارف الملك النبا
صرن رعى ونسلك السبلا

قال: وقلت فيه رباعية:

المشمش لانتظارنا مصفر
والروض إلى لقائنا مفتر
قم نغتنم الوقت فهذا العمر
لالبث له فمن به يغتر

قال: وفي هذه السنة نصرت الاساطيل في البحر مرارا، ونفذ السلطان في استدعائها ، استظهارا.

قال محمد بن القادسي: وفي مستهل رجب وكل بأمر الحاج طاشتكين، يعني الذي قتل أمير حاج الشام شمس الدين بن المقدم بعرفات سنة ثلاث وثمانين، ثم قبض عليه، وسببه أنه اتهم بمكاتبة السلطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلق بقلب الدولة، وأظهر عليه استاذ الدار أبو المظفر بن يونس كتابا قيل انه خطه وفيه: «المصلحة مهادنة الفرنج والمجيء إلى البلاد، فما يقف بين أيديكم أحد، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق ، وهذا وقتكم إن كان لكم نيه، وأنا مشدود الوسط في الخدمة». ثم ذكر ابن القادسي أن ذلك مستبعد في حق طاشتكين وزور وبهتان ، ونسب ذلك إلى افتعال ابن يونس عليه ، وكان طاشتكين أمير الحاج عشرين سنة يخطب له بمكة بعد الخطبة لأمر المؤمنين ، وله اقطاع بمائة ألف دينار.

قال : وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المرهف نصر بن منصور النميري الشاعر الأديب الزاهد، سمع قاضي البيهراستان ، وروى عن ابن نيهان وكان قد ولي بالشام وخالط أهل الأدب واضر بالجدري ، وله أربع عشرة سنة ، وكان يبصر الأشياء القريبة منه ، ولا يحتاج الى قائد إذا مشى ، ثم قدم العراق لمداواة عينه فأياسه الاطباء من ذلك ، فاشتغل بالقرآن وحفظه، وصاحب المتدينين والزهاد من أهل الفقه والحديث واللغة ، وله ديوان شعر كبير وسئل عن مذهبه فأملى:

أحب عليا والبتول وولدها

ولأجحد الشيخين فضل التقدم

وابرأ من نال عثمان بالاذى

كما تبرأ من ولاء ابن ملجم

ويعجبني أهل الحديث لصدقهم

فلسنت إلى قوم سواهم بمتهم

وله أيضا في غير ذلك:

وزهدني في جميع الأنسا

م قللة انصاف من تصحّب.

هم الناس مالم تجربهم

وظلس الذناب إذا جربوا

وليتك تسلّم عند البعا

دمهم فكيف إذا تـربوا

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

قال العماد: والسلطان مقيم بدمشق في داره، وبمالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورسل الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه، والضيوف في فيوض انعامه عائمون، والفقراء في رياض صدقته راتعون، ويجلس في كل يوم وليلة لاسداء الجود، وابداء السعود، وبث المكارم وكشف المظالم، وبزز إلى الصيد شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوماً، واستصحب معه أخاه وأبعد في البرية وظهر عن ضمير ضمير إلى الجهة الشرقية، وطابت له الفرص، ووافق مراده القنص، ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صفر ووافق ذلك عود الحاج الشامي فخرج للتلقي، وسعادته في الترقى، ولما لقي الحجاج استعبرت عيناه، كيف فاته من الحج ما تمناه، وسألهم عن أحوال مكة وأميرها وأهلها، وخصبها ومحلها، وكم وصلهم من غلات مصر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتها واداراتها، وسر بسلامة الحاج، ووضوح ذلك المنهاج، ووصل من اليمن ولد أخيه سيف الاسلام فتلقيه بالاكرام.

قال القاضي ابن شدّاد: وخرجت من القدس الشريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم، وكان الوصول إلى دمشق ثاني عشر صفر، وكان الأفضل حاضراً في الايوان الشمالي، وفي خدمته خلق من الأمراء وأرباب المناصب ينتظرون جلوس السلطان، فلما شعر بحضوري استحضرنى وهو وحده قبل أن يدخل إليه أحد، فدخلت عليه رحمه الله، فقام ولقيني ملقى مارأيت أشد من بشره فيه، ولقد ضمنى إليه ودمعت عينه، وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرت، فسألني عمن في الايوان فأخبرته أن الملك الأفضل جالس في الخدمة والأمراء والناس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة اقبال، ثم استحضرنى بكرة الخميس رابع صفر، وهو في صفة البستان، وعنده أولاده الصغار، فسأل عن الحاضرين، فقيل رسل الفرنج، وجماعة الأمراء والأكابر، فاستحضر رسل

الفرنج إلى ذلك المكان فحضروا، وكان له ولد صغير، وكان كثير الميل إليه يسمى الأمير أبابكر، وكان حاضرا وكان رحمة الله عليه يداعبه، فلما وقع بصره على الفرنج ورأى أشكاهم خاف منهم وبكى فاعتذر اليهم وصرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمع كلامهم وقال لي: أكلت اليوم شيئا، وكانت عادته رحمه الله هذه المباشطة، ثم قال: أحضروا لنا أرزا بلبن وما يشبه ذلك من الاطعمة الخفيفة، فأكل رحمه الله، وكنت أظن أن ماعنده شهوة، وكان في هذه الأيام يعتذر إلى الناس لثقل الحركة عليه، وكان بدنه ممتلئا وعنده تكسل، فلما فرغنا من الطعام، قال: ما الذي عندك من خبر الحاج، فقلت قد اجتمعت بجماعة منهم في الطريق، ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم، ولكنهم في غد يدخلون فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم، وتقدم بتنظيف طرقاتهم من المياه فإنها كانت سنة كثيرة الأنداء والأمطار، وقد سالت المياه في الطرق كالأنهار، وانفصلت عن خدمته، ولم أجد عنده من النشاط ما أعهدده منه، ثم بكر في يوم الجمعة فركب ثم لحقته وقد لقي الحاج ولم أجد عليه كراغنده، وما كان له عادة يركب بدونه، وكان يوما عظيما قد اجتمع فيه للقاء الحاج والتفرج على السلطان معظم من في البلد، فاذكرته ذلك، فكأنه استيقظ، فطلب الكراغند فلم يوجد، وأوقع الله في قلبي تطيرا بذلك، ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلب جهة المنيع حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر إليها وهو طريقه المعتاد، وكانت آخر ركباته رحمه الله.

فصل

في مرض السلطان ووفاته احله الله بحبوحه جناته

قال القاضي: لما كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما ، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صفر عليه أثر الحمى، ولم يظهر للناس ذلك ، لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الافضل، وطال جلوسنا عنده، وأخذ يشكو من قلقه بالليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر، ثم انصرفنا والقلوب عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الافضل، ولم يكن للقاضي عادة بذلك ، فانصرف ودخلت إلى الايوان القبلي وقد مدّ الطعام، وولده الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وما كان لي قوّة للجلوس استيحاشاً، وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاقوا بالجلوس ولده موضعه ، ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ، ونحن نلازم التردد في طرفي النهار، وأدخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً ويعطى الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد ألف مزاجه سافراً وحضراً، ورأى الأطباء فصدّه ففصدوه في الرابع ، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلبه النفس غلبة عظيمة، ولم يزل المرض في تزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف ، ولقد أجلسناه في السادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدّة، وأحضر ماء فاتر ليشربه عقيب شراب يلين الطبع ، فشربه فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدّة حرّه ، فغير وعرض عليه ثانياً، فشكا من برده ولم يغضب ولم يصخب رحمه الله، ولم يقل سوى هذه الكلمات : سبحان الله ألا يمكن أحد تعديل الماء، فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتدّ منا البكاء، والقاضي الفاضل يقول لي: انظر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أن هذا بعض الناس كان قد

ضرب بالقدح رأس من أحضره، واشتدّ مرضه في السادس والسابع والثامن ولم يزل متزايدا، وتغيب ذهنه، ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتدّ الارجاج في البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة من الأسواق وغشي الناس من الكآبة ما لا يمكن حكايته، ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد كل ليلة الى أن يمضي من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم يحضر في باب الدار فإن وجدنا طريقا دخلنا وشاهدنا وانصرفنا، وإلا تعرفنا احواله وانصرفنا، وكنا نجد الناس يرتقبون خروجنا إلى بيوتنا، حتى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا، ولما كان العاشر من يوم مرضه حقن دفتين، وحصل من الحقنة راحة، وحصل بعض الخفة، وتناول من ماء الشعير مقداراً صالحاً، وفرح الناس فرحاً شديداً فأقمنا على العادة إلى أن مضى من الليل هزيع، ثم أتينا الدار فوجدنا جمال الدولة اقبالا، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدد، فدخل، ثم أنفذ إلينا مع الملك المعظم تورانشاه يقول: إن العرق قد أخذ في ساقيه فشكرنا الله على ذلك، وانصرفنا طيبة قلوبنا، ثم أصبحنا فأخبرنا أن العرق أفرط حتى نفذ في الفرش، وتأثرت به الأرض، وأن اليبس قد تزايد به تزايداً عظيماً، وخارت القوة واستشعر الأطباء، ولما رأى الملك الأفضل ما حل بوالده، وتحقق منه شرع في تحليف الناس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه، واستحضر القضاة، وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته، وله من بعد وفاته، واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتدّ، وما نعلم ما يكون وما نفعل هذا إلا احتياطياً على جاري عادة الملوك، ثم سمى القاضي ممن حلف له جماعة منهم: سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود الشحنة، وناصر الدين صاحب صهيون، وسابق الدين صاحب شيزر، وخشترين الهكاري، ونوشروان الزرزاري، وعلكان ومنكلان، ثم مدّ الخوان وأكلوا، ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر المشطوب والبكي الفارس، وأبيك

الأفطس، وأخو سياروخ ، وحسام الدين بشارة، وبعضهم اشترط في يمينه، وبعضهم لم يشترط، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم.

ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر، وهي ليلة الثاني عشر من مرضه، اشتدّ مرضه، وضعفت قوته، ووقع في أوائل الأمر من أوائل الليل، وحال بيننا وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة ، وابن الزكي، ولم تكن عاداته الحضور في ذلك الوقت، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده، فلم ير الفاضل ذلك رأياً، فان الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لانزل فيقع الصوت في البلد، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً، فرأى المصلحة في نزولنا واستحضر الشيخ أبي جعفر إمام الكلاسة، وهو رجل صالح يبيت بالقلعة حتى إن احتضر بالليل، حضر عنده، وحال بينه وبين النساء، وذكره بالشهادة، وذكر الله تعالى، ففعل ذلك، فنزلنا وكل منا يؤد لو فداه بنفسه، وبات في تلك الله على حال المتنقلين الى الله تعالى، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكره بالله تعالى، وكان ذهنه غائبا من ليلة التاسع لا يكاد يفيق إلا في بعض الأحيان ، وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: (هو الله الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة)^(١٣٤) سمعه وهو يقول: صحيح وهذه يقظة في وقت الحاجة، وعناية من الله تعالى به، فله الحمد على ذلك، وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته، ووصلت أنا وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله، ومحل كرامته، ولقد حكى لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: (لا اله الا هو عليه توكلت)^(١٣٥) تبسم و تهلل وجهه وسلمها إلى ربه، وكان يوماً لم يصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وتالله لقد كنت أسمع

من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوّز والترخيص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري، أنه لو قبل الفداء لمدني بالنفس.

ثم جلس ولده الافضل للعزاء في الايوان الشمالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعممين ، وكان يوماً عظيماً قد شغل كل انسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه شاعر أو يتكلم فيه قصاص أو وعاظ، فكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تزهر لهول منظرهم ودام الحال على ذلك إلى بعد صلاة الظهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مكنا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض حتى في ثمن التبن الذي يلت به الطين، وغسله الدولعي الفقيه، وندبت إلى الوقوف على غسله، فلم يكن لي قوة تحمل ذلك المنظر، واخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه، قد أحضره الفاضل من وجه حل عرفه.

وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج حتى أن العاقل يتخيل أن الدنيا كلها تصبح صوتاً واحداً، وغشي الناس من البكاء والعيول ما شغلهم عن الصلاة، وصلى عليه الناس أرسالا، وكان أول من أم بالناس القاضي محيي الدين بن الزكي، ثم أعيد رحمة الله عليه إلى الدار التي في البستان الذي كان ممرضاً بها، ودفن في الصفة الغربية منها، وكان نزوله في حفرة قريبة من صلاة العصر، ثم نزل في أثناء النهار ولده الظافر، وعزى الناس فيه، وسكن قلوب الناس، وكان الناس قد شغلهم الحزن والبكاء عن الاشتغال بالنهب والفساد، فما يوجد قلب إلا حزينا، ولا عين إلا باكية إلا من شاء الله، ثم رجع الناس إلى بيوتهم أقبح رجوع، ولم يعد منا أحد في تلك الليلة إلا أنا حضرنا وقرأنا، وجددنا

حالا من الحزن، واشتغل ذلك اليوم الملك الأفضل بكتب الكتب إلى أخوته وعمه يخبرهم بهذا الحادث، وفي اليوم الثاني جلس للعزاء جلوسا عاما وأطلق باب القلعة للفقهاء والعلماء، وتكلم المتكلمون، ولم ينشد شاعر، ثم انفض المجلس في ظهيرة ذلك اليوم واستمرّ الحال في حضور الناس بكرة وعشية لقراءة القرآن والدعاء له رحمة الله عليه.

وقال العماد: جلس السلطان ليلة السبت سادس عشر صفر ونحن عنده حتى مضى من الليل ثلثه، وهو يحدثنا ونحن يحدثه، ثم صلى به وبنا امامه، وحان قيامه، وانفصلنا باحسانه مغتبطين، وبامتنانه مرتبطين، واصبحنا يوم السبت وجلسنا في ايوانه ننتظر خروجه لوضع الخوان ووجدناه قد اغلق باغلاق بابه رهنه، ولم نشعر بما قضاه القدر وأجنه، وخرج من خدمه من أخبر بسقمه، وكان من شرط الأدب أن يخلى له موضعا، فتطينا من تلك الحالة، وتكرهنا منها سوء الدلالة، فتلاعبت فيه العيون، وتراجعت الظنون، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه في الزيادة، وفي كل يوم تضعف القلوب وتتضاعف الكروب، وانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء في سحرة يوم الأربعاء، ونابت الظلماء عن الضياء، ودخل قمره ليلة السابع والعشرين في السرار، ودجت مطالع الأنوار، ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمس فضاء الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضت الأعادي، ودفن بقلعة دمشق في مسكنه، ودفن جماع الكرم والفضل والدين بمدفنه.

ثم بنى الملك الأفضل قبة شمالي الجامع في جواره، بشباك إلى الجامع لزواره، ونقله إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين، واسترجعنا وقلنا مالنا إلا أن نستعيد بالله ونستعين به، قال: وما قلت رباعية في المرثية:
قال الملك الناصر من كلفني
في الجرد بغير شيمتي فما أنصفتني

ما يعلم أن ذلك الملك الفني
لم يبق من الجود إلا كفتي

وقال العماد أيضا في رسالته الموسومة بعقبى الزمان: وكان السلطان رحمه الله لما توفي بالقلعة في منزله ، وما زال الأفضل يتروى في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك فأشير عليه، في سنة تسعين بأن يبنى تربته عند مسجد القدم، وبينى عندها مدرسة للشافعية، وقالوا إذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدخول إلى دمشق لأجلها، وقالوا إن السلطان رحمه الله لما مرض سنة احدى وثمانين بحرّان كان قد أوصى أن يدفن بدمشق قبلي ميدان الحصا، ويكون قبره على النهج السائل، وطريق القوافل ، ليدعو له الوارد والصادر، والبادي والحاضر ، وتجاوز عليه في الغزوات العساكر. قالوا: وإن تنأت هذه الأرض عن مكان الوصية فهي منه قريبة، فأمر الأفضل ببناء التربة عند مسجد القدم، وتولى عمارتها بدر الدين مودود والي دمشق، فاتفق وصول العزيز تلك السنة للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرّب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم استقرأ الأفضل حدود الجامع ليجعل التربة فيها، فوفق لدار كانت لبعض الصالحين وهي في حدّ المكان الذي زاده الأجل الفاضل في المسجد ، فاشتراها منه وأمر بعمارها قبة فعمرت، ونقل إليها السلطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بكرة الخميس ومشى الأفضل بين يدي تابوته، وأراد العلماء والفقهاء حمله على أعناقهم التي فيها منته، فقال الأفضل: كفته أذعيتكم الصالحة التي هي في المعاد جنته، وحمله مماليكه وخدمه، وأولياؤه وحشمه، وأخرج من باب القلعة في البلد على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع، ووضع قدّام باب النصر، وصلى عليه القاضي محيي الدين بن محمد القرشي باذن الأفضل، ثم حمل منه على الرؤوس إلى بطن ملحده، ثم جاء الأفضل وحده، ودخل لحده، وأودعه وخرج وسدّ الباب على أبيه، وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيام للعزاء ، وانفقت ست الشام أخت السلطان في هذه النوبة أموالاً كثيرة.

قال محمد بن القاسمي: وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول شاعت الأخبار —يعني ببغداد— بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل وقيل عنه هذا يتوكأ عليه إلى الجنة، وأن الفاضل كفنه من ماله وتولى غسله الفاضل، وخطيب دمشق.

قلت: وحكي لي أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله، وأنهم لما صاروا عند الشباك سجدوا.

ووجدت في بعض الكتب الفاضلية: «أن رجلا رأى ليلة وفاة السلطان كأن قائلا يقول له: قد خرج الليلة يوسف من السجن، وهو من الاثر النبوي: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١٣٦) قال: وما كان يوسفنا رحمة الله عليه في الدنيا بالاضافة إلى ما صار إليه في الآخرة إلا في سجن، رضي الله عن تلك الروح، وفتح له باب الجنة فهو آخر ما كان يرجوه من الفتوح».

ومن كلام غيره في وفاة السلطان رحمه الله تعالى: «أفلت الشمس عند الصباح، وذهبت روح الدنيا الذي ذهب بذهاها كثير من الأرواح، وتلك ساعة ظلت لها الأبواب حائرة، وتمثلت فيها السماء مائرة، والجبال سائرة، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الاسلام وقد فقدنا ناصره ثاكلا لوحيد، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد، وليس أحد من الناس إلا وقد صم عن الخبر، وأصيب في سواد القلب والبصر». وقال: «وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول عمر»^(١٣٧)

وختم كتابه البرق الشامي بقصيدة رثى بها السلطان رحمه الله عددها

في ديوانه مائتان وثلاثون بيتا أولها:

شمل الهدى والملك عم شتاته
والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مدلم يزل مخشية
مرجوة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا
مبذولة ولربه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي
لله خالصة صفت نياته
أين الذي مازال سلطاننا
يرجى نداءه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله
وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج لبأسه
ذلاً ومنه أدركت ثاراته
اغلال أعناق العدا أسيفه
أطواق أجياد الورى مناته
لم يجد تدبير الطيب وكم وكم
أجدت لطب الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت
بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من في صدور الكفر صدر قناته
حتى توارت بالصباح قناته
لذا المتاعب في الجهاد ولم تكن
مذعاش قط لذاته لذاته
مسعودة غدواته محمودة
روحاته ميمونة ضحواته

في نصره الاسلام يسهر دأئها
ليطول في روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد
فمات كل العالمين بمماته
ملك عن الاسلام كان محاميا
أبدأ إذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذغاب عنها دوره
لما خلقت من بدرة داراته
دفن السماح فليس ينش بعد ما
أودى إلى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف
أقوت قواه وأقفرت ساحاته
جبل تضعع من تضعع ركنه
أركاننا وتهدنا هداياته
ما كنت أعلم أن طود أشاخا
يهوي ولا تهوي بنا مهواته
ما كنت أعلم أن بحر اطاميا
فينا يطم وتتهي زخراته
بحر خلامن وارديه ولم تزل
محفوظة بوفوده حفاته
من الليتامى والأرامل راحم
متعطف مفضوذة صدقاته
لو كان في عصر النبي لأنزلت
في ذكره من ذكره آياته
فعلى صلاح الدين يوسف دأئها
رضوان رب العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فإن يغب
تحضر لرحمة ربه سقياتته

وكعادة البيت المقدس يحزن الـ
بيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه
من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصورم والصوراهل إذ خلّت
من سبلها وركوبها غزواته
وبسيفه صداد الحزن مصابه
إذ ليس يشفى بعده صدياته
يا وحشتا للييض في اغمادها
لا تنضيهما للوغى عزماته
يا وحشة الإسلام يوم تمكنت
في كل قلب مؤمن روعاته
يا حسرتا من بأس راحته الذي
يقضي الزمان وما انقضت حسراته
مألت مهابته البلاد فإنه
أسد وإن بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى
فكأنما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به
بيدى السبات وقد بدت غشياته
والبشر منه تبلجت أنواره
والوجه منه تالأت سبحاته
ويقول لله المهيم من حكمة
في مرضة حصلت بها مرضاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه
لهم فقيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفاً أمس تحت ركابه
واليوم هم حول السرير مشاته

ومالك الأفاق ساعية له
فمتى تجيء بفتحهن ساعاته
هذه مناشير المالك تقتضي
توقيع فيه فأين دواته
قد كان وعدك في الربيع بجمعها
هذا الربيع وقد دنا ميعاته
والجندي الديوان جدد عرضه
وإذا أمرت تجددت نفقاته
والقدس طامحة إليك عينونه
عجل فقد طمحت إليه عداته
والغرب منتظر طلوعك نحوه
حتى تفيء إلى هداك بغياته
والشرق يرجو غرب عزمك ماضيا
في ملكه حتى تطيع عصاته
مغرى بإسداء الجميل كأنها
فرضت عليه كالصلاة صلته
هل للملوك مضاهة في موقف
شدت على أعدائه شداته
وإذا الملوك سعوا وقصر سعيهم
رجحت وقد نجحت به مسعته
كم جاءه التوفيق في وقعاته
من كان بالتوفيق توقيعاته

قال: ووجد بخط العماد في حاشية ديوانه كانت علامته «الحمد لله
وبه توفيقى»

ياراعى اللدين حين تمكنت
منه الذئاب وأسلمته رعاه
ما كان ضرك لو أقمتم مراعيها
ديناتولى مذر حلت ولاته

أضجرت منا أم أنفت فلم نكن
نصاب لشدة ضجراته
أرضيت تحت الأرض يامن لم يزل
فوق السماء عليّة درجاته
فارقت ملكا غير باق متعبا
ووصلت ملكا بأقبار احاته
اعزز على عيني برؤية بهجة الـ
دنيا بأبى ما الكرام أباته
لاقتدوا إلا بسنة فضله
لتطيب في مهد النعيم سناته
وردوا موارد عدله وساحه
لترد عن نهج الشمات شماته
ولئن هوى جبل لقد بنيت لنا
بنييه من هضباته ذرواته
وبفضل أفضله وعزز عزيزه
وظهور ظاهره لناسرواته
الأفضل الملك الذي ظهرت على الـ
دنيا بزهر جلاله جلواته
والدين بالملك العزيز عماده
عثمان حاليّة لنا حالاته
والملك غازي الظاهر العالي الذي
صحبت لأظهار العلى مغزاته
ولناب سيف الدين أظهر نصره
بالعادل الملك المطهر ذاته

وللعهاد فيه قصيدة أخرى:
من للعلامن للدرى من للهدى
يحميه من للبأس من للنائل

طلب البقاء للكله في آجل
إذ لم يثق ببقاء ملك العاجل
بحر أعد البر بحر أبره
وبسيفه فتحت بلاد الساحل
من كان أهل الحق في أيامه
وبعزه يردون أهل الباطل
وفتوحه والقدس من أكارها
أبقت له فضلا بغير مساجل
ما كنت أستسقي بغيرك وإبلا
ورأيت جودك نخب جلال اللوابل
فسقاك رضوان الإله لأنني
لا أرتضي سقيا الغمام الهاطل